مكتبة نوميديا

رواية

العراك في جهنم

محمد النعاس

الشوير

محمد النعاس

العراك في جهنّم

الكتاب: العراك في جهنّم، رواية
تأليف: محمد النعاس
تصميم الغلاف: الفنان ياسين السويح
عدد الصفحات: 144 صفحة
الترقيم الدولي: 978 - 9938 - 941 - 86 - 9
رقم الناشر: 191-309/ 24
الطبعة الأولى: 2024

الناشر
دار التنوير

تونس: 16 الهادي خفشة – عمارة شهرزاد – المنزه 1 – تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar - altanweer.com
لبنان: بيروت– الرملة البيضاء– بناية بنك لبنان والخليج– الطابق الثاني
هاتف: 009611797434
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.daraltanweer.net
www.daraltanweer.com

محمد النعاس

العراك في جهنّم

رواية

إهداء

إلى روح صادق النيهوم الذي تجلّت عظمة سخريته في كتابه قصصٌ للأطفال،
إلى روح محمد طمليْة الرجل الذي تعلّمت منه أنّ على المرء أن يواجه الظلام بالسخرية منه،
إلى روح الفنّان الخالد محمد ازواوي، هذه الحكاية ليست إلا تقليدًا لما رسمته،
وإلى روح إبراهيم حميدان، الضاحك دائمًا حتّى في أصعبِ المواقف، سأشتاق لك.

1

لم يبدأ العراك في جهنّم صدفةً؛ فهذا أمرٌ غير منطقيٍ البتّة.

قيل إنّ العراك بدأ بعد تصعيد جمال التشنكوي ليصبح أوّل سكّيرٍ وتاجرٍ للخمر يجلس على كرسي أمانة شعبية جهنم. لم يثق منافسه، العقيد بودبّارة من حملِ التشنكوي على عاتقه مطالب شعبية جهنّم، فدخلت القرية بأكملها في أشهر ثلاثة من القتال بين شيعة التشنكوي وحزب العقيد؛ إذ لم يرض الخاسرون أن يصبح تاجر البوخة[1] أمينًا لهم.

قيل أيضًا، إنّ العراك كان حتميًا قبل ذلك؛ إذ بعد أن اشترى العقيد من التشنكوي قنينة من البوخة لم تسكره، ذهب للشكوى فأغلق التشنكوي عليه حنفية السُكر وظل صاحيًا يواجه خيالات حرب تشاد البائسة التي طاردته في لياليها غيلان العدو التشادي. الرواة، الذين عاشوا في ذاك الزمان، قالوا إنّ أصل الخبر مدفون في أقصى جنوب الصحراء حيث تلتقي البلاد ببلاد التشاد أيّام

(1) لم يعرف المغرب الكبير وخصيصًا الشعب الطرابلسي مشروبًا ألذّ ولا أسرع في المساعدة على فقدان الوعي مثل البوخة، وهي شبيهة الفودكا إلا أنّها تصنع -حسب هوى البائع- من الكرم والجوارب الفاسدة والبول. لكن لا تخف، فهي تمرّ بكل المراحل التي تمرّ بها الكحوليات من تبخير وتقطير.

كان التشنكوي جنديًا من جنود العقيد، خذله وفرقتَه العقيدُ هاربًا في طائرة إمدادات إفرنجيّة بعد أن أحاطت بهم سيارات الغُولِ إدريس ديبّي؛ فعاش تاجر الخمر أحلك أيام حياته في حظائر بقر نْجامينا وخبّأ حقده على العقيد حتى جاء الوقت المناسب. أما المشاكسون ففضّلوا تتفيه القضية، إذ يتداولون أنّ السبب، كل السبب، يصيب شرف كريمةِ جمال بكريم العقيد. تداول الناس مسبباتٍ أخرى لا يصلح هذا المكان للحَديث عنها وإن أخذت برأيي فالذي أدى للعراك لا يهم، المهم أنّه حدث، العراك كغيره من ملاهي الوجود الإنساني لا يحتاج لتفسير أو تأويل.

وقبل أن تخدعك نفسك أيضًا في التأويل والتفسير عن مغزى هذه الحكاية ورموزها، وهل يمكن أن يرمز التشنكوي والعقيد لكيانات أكبر منهما ليكونا أطراف صراعٍ في المعمورة الليبية أو أي معمورة أخرى، قديمًا أو حديثًا، أردتُ أن أريح عقلك وأقول لك بأن هذه القصة حقيقية، وحدثت في تسعينيات القرن البائد، في قرية صغيرة اسمها جهنّم، في ناحية من نواحي البلد، تحت أعينِ سلطة الشعب. وأنا هُنا، الراوي الذي يستعير انتباهك، مجرد محرّف لها لغرض المُتعة والأرشفة الإنسانية للأجيال القادمة، الأجيال التي لن تهمها العِبرَ بقدر اهتمامها بأننا كنا نعيش في بلدٍ غير خاضع لمعايير العالم الذي يحوم حولنا، بلدٌ هامشيٌّ في كل بيت فيه زجاجات سعادة[1]، كوثر، تبر ومرادة فارغة نعبئها

(1) السعادة، كوثر، مرادة وتبر: زجاجات مشروب غازي صناعة محليّة وتعدّ في فترة الثمانينات والتسعينات فخر الصناعة الليبية التي حققت نبوءة القائد

عند الموزعين الفرديين والجمعيّات، نستخدمها بعد تكسرها لحماية أسوارنا التي يمتد ارتفاعها ضعفي طول إنسان بالغ من الغزاة والسارقين. وفي حالة العِراك بين بيت التشنكوِي والعقيد، نحوّلها إلى زجاجات مولوتوف ونستخدمها صواريخ لإحراق أرض العدو.

ولأنني أعرف أمثالك، أود أن أخذلك وأخبرك بأنّ التشنكوي ورغم تاريخه المثير للاهتمام الذي يمكن قراءته من الأوشام التي تغزو جسده عن الحبيبات القديمات والرفاق والقصص التي عاشها داخل البلاد وخارجها، لن يكون هنا إلا شخصية هامشية، هو والعقيد الذي حطت رحاله أرض جهنّم في العام الذي حاولت فيه مجموعة من أصدقائه القدامى تمرير رمّانة تحت رِجليْ القائد، ولأنّ للرجل كرامات لدى القائد فضّل الأخير أَن يتركه حيًا نازعًا عنه ألقابه، تاركًا إياه للأيام تفعل به ما تشاء. هذه القصة عن القرية؛ ليس لأنّ للشعوب حقًّا في أن يكون لهم تاريخهم المرتبط بالمعارك والحروب بين قوّادهم، فقط لأنّ الأمر أكثر متعةً، بالنسبة إليّ على الأقل.

معمّر بومنيار: «لا حرية لشعب يأكل من وراء حدوده». كما هزمت الإمبريالية الغربية المتمثلة في زجاجات بيبسي وكوكاكولا وغيرها بشرائها من الشركات الأم وتعريبها، فسعادة تتحدّى بيبسي، وكوثر تتحدى كوكاكولا، ومرادة هي ميراندا الليبية وتبر تتحدّى «بتر سودا» أو «الصودا المرّة»، وقد نجحت هذه العلامات التجارية في سدّ حاجة الشعب الليبي أحيانًا -إذا كانت تختفي في بعض الأحيان- من المشروب الغازي المهم حتى تصالحت الجماهيرية مع العالم بداية القرن الواحد والعشرين فسُمِح للإمبريالية بالعودة من جديد.

ولهذا؛ ومن دون داعٍ للمزيد من الإطناب، استيقظ الحاج امحمد بو مسمار، سليلُ بو مسمار الشريف، والذي، بحسب الروايات المنقولة، جاء هاربًا من الإسبان، من الساقية الحمراء، إلى البلاد تاركًا مفتاحه في بيته بالمغرب ليستقر وأحفاده من بعد في طرابلس الغرب. استيقظ الحاج إمحمد بعد أن سقطت صورته وهو يتلحّف الإحرام في استوديو تصوير بوسط البلاد في طرابلس الغرب خلفه صورة حائط للكعبة المشرّفة ليوثّق استحقاقه للقب الحاج. سقطت الصورة بعد أن اهتزّت أركان بيته وبيت أجداده. وبعد أن تعوَّذ من شياطين الإنس والجان، أطلق مسبات بلغة الروم الذين عاش مع أبقارهم زمنًا طويلًا في حظائر باليرمو، حمل عكّازه، التحف الحولي الصيفي وارتدى معرقته البيضاء على رأسه وخرج إلى باحة البيت ينظر إلى النار وهي تلتهم نخلة البرونصي التي تتوسط الباحة. حمل خرطوم المياه بسرعة وشغّل الموتور وحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه. تساءل عن القدر الذي جعل بيته يقع في متوسط المسافة بين منزليْ جمال والعقيد بودبّارة، ثمّ بالطبع، تعوّذ من الشيطان والنفس الأمّارة، فالمؤمن الحق لا يسأل عن قدره أبدًا. وبعد أن تمكن الحاج من إخماد النار، جلس على كرسيّه يراقب النخلة ويعاين المكان الذي وقعت فيه قذيفة المولوتوف باحثًا عن من ألقاها من الجارَيْن، متناسيًا تمامًا أنّ قذيفة المولوتوف لم تكن سببًا في إيقاظه بل اهتزاز بيته بقنبلة أقوى. وبعد أن أدرك بأنّه لن يتمكّن من معرفة المكان الذي جاءت منه القذيفة بالعين المجرّدة، قرر البحث عن

شظاياها الزجاجية، ربما يجد ما يدل على ماركة قنينة المشروب الغازي التي عبّأ فيها السفلة البنزين، ومن ثم وبحسب خبرته بما يفضله أبناء القرية من مشروب سيتمكن من معرفة الجاني. تحرّك، وقف أمام الشجرة، ترحّم عليها بينما حاول الانحناء تحتها باحثًا بعكازه عن البقايا الزجاجية محاربًا آلام الظهر، فكّر الحاج إمحمد أنّ عليه الآن أن يختار لنفسه طرفًا يدعمه في العراك بعد شهر من الحياد ومحاولات الإصلاح. «لعنة الله على أبناء الرْبِى[1]»، قال الحاج بعد أن أدرك وهو ينظر لأعلى أنّ النار وصلت إلى قلب النخلة معلنة موتها وعدم قدرته حتى على الاستفادة منها كموردٍ لعصير اللاقبي.

«سِيدي يقول لك يا حاج إمحمد إنّ على الملعون جمال الرحيل من جهنّم»، استذكر نقاشه مع العقيد بالأمس، كان متعطّشًا لأن يبلّ ريقه بكأس شايْ، لم يفكر كثيرًا في كلمات العقيد المتآكلة في رقبته إثر فقدانه حُنجرته بسبب البوخة والسجائر وسرطان الحنجرة ولا في كلمات ابنه الذي اتخذه ترجمانًا لما يقوله. كان جمال قد أقدم قبل أيام على الاستعانة برفاقٍ قدامى في تشاد من خارج القرية بعد اشتداد هجمات العقيد على بوابة بيته وتقييد حركة الزبائن. كان جند العقيد المتمثّلين في أولاده وبعض المناصرين المعلنين والسريين داخل القرية يفوقون جمال

(1) الربِى، أي «الربا» أو «الحرام» وهي تنطق بتخفيف الياء حتى تشبه في نطقها حرف e باللغة الإيطالية. وما نقول عن ما فعله الحاج هُنَا إلا «ربي يهدي»، فمن المعيب أن يقذف شيخٌ مثله المؤمنات الغافلات.

وشيعته. ظل الحاج يفكّر طيلة الوقت في كأس الشاي بينما لم يتوقّف العقيد عن الحديث وابنه عن الترجمة. دار ذهن الحاج في إطار فوق رأس العقيد حتى يطرد تلهّفه لكأس الشراب الأسود الذي بدأ يرسم صورته في عقله بالرغوة اللذيذة تزيّنه ويستطعم طعمه الحاد الذي افتقده ليوم كامل. كان الإطار يحملُ جُمَلًا من لغة الروم لم يفقهها، لكنه استمع لقصص العقيد عنها وعن أيامه في تشيكوسلوفاكيا قبل انهيار الاتحاد السوفييتي، هي شهادة تخرّجه بدرجة الامتياز في كلية التقنيات العسكرية، تعلّم فيها تفكيك الألغام وزراعتها، وصناعة القنابل والقذائف. في أيام السلم قبل العراك، لم يتوقّف العقيد، الجار الجديد للحاج عن الحديث عن تلك الأيام التي كان له فيها شنّة ورنّة، وكان الحاج يتحمّل مباهاته محاولًا بطريقة أو بأخرى أن يخبره بأنّه هو أيضًا، كان يلقي في ظلمات الليل بالحِجارة على أولاد الروميّة ويسرق منهم ما أمكنه، ليهرب هو وأخوه مختبئيْن لأيام في كهوف القرية. هاجمته فكرة مريحة بأنّه ومنذ الحرب لم يتحدّث العقيد عن أيامه في بلاد الشيوعيين.

« آه وأخيرًا الشاي»، قال الحاج إمحمد وهو يتابع أصغر فتيان العقيد يحملُ صينية عليها كؤوس الشاي. ترتعش يدا الفتى، فيدعو الحاج الله في خاطره ألّا تضيع الكؤوس بتهوّر الفتى. «على رسلك، بالراحة... تعال واسقِ عمّك الحاج الأول»، قال للفتى وهو يحاول أن يعير الانتباه لكلمات الترجمان مخفيًا فرحته بوصول الشاي. في البدء رغب أن يشربها دفعة واحدة،

لكن كان يعرف أنّه إن فعل فلا أحد يعلم متى ستأتي الفرصة لشرب الشاي مرة أخرى خلال الأسبوع. ظلّ لأيام يعيش على وعود أمين الجمعيّة بأنّ الشاي قد جاء من سيرلانكا منذ شهر، ولكن المشكلة بقيت في مصنع تعليبه وتوزيعه، بعد توقف حمولة الكراتين التي تحملُ صورة للمرأة السيرلانكية، تذكّر أنّه قال للأمين بأنّه لا يحتاج أن يرى الفتاة الآسيوية بردائها الأحمر وإشاربها الأصفر تقطف له الشاي، يمكنهم أن يعطوه حصته في كفَّيْ يديه، كما كانوا يفعلون قديمًا. ارتشف شايه ببطء، قائلًا في نفسه بأنّه على استعداد أن يقف مع العقيد في حربه، وأن يترك الدعوة للصلح، فقط من أجل كأس شاي يوميًا حتى تحل الحكومة الأزمة وتصل شاحنة التموين للجمعية، عندها قد يفكر في الدعوة للصلح مجددًا فجمال لم يضيّفه شايًا طيلة زياراته له للتهدئة وتصفية القلوب ودعواته المتكررة للصلاة على النبي والتعوّذ من الشيطان.

«يا حاج إمحمد، انقل الكلام لجمال، نعطيه مهلة أسبوع ليخرج من القرية، دقّت ساعة الصفر». كانت آخر الكلمات التي سمعها من ترجمان العقيد، بعد أن رأى العقيد يشير إلى ساعته محاولًا أن ينطق كلمة صِفر من دون فائدة. أراد النهوض ولكنه كان في منتصف المسافة في التلذّذ بكأس شايه، لم يرغب بأن يتركه قبل أن يتأكد من أنّ السائل قد انتهى تمامًا.

كان ذلك بالأمس. اليوم وبعد أن أيقظوه لم يرغب في تأمّل

العِراك، نسي صلاة الضحى وخرج يعاين الأضرار في الشارع. وقف أمام باب بيته في الزقاق الضيّق الفاصل بين بيت العقيد وبيت التشنكوي، ينقّل نظره ليعرف أيّ البيتين قد أصيب بإصابات جديدة، لاحظ بأن سور بيت التشنكوي صار محروقًا أكثر من ذي قبل، لكن كذلك سور بيت العقيد. الأمر الذي فاجأه وجعله مشدوهًا وجود فوّهة اصطُنِعَت في حُجرة العمليات بسقف بيت العقيد وقد فرغت أكياس الرمال التي تحمي الحجرة من محتواها. لم يتمكن التشنكوي وشيعته، رغم بسالتهم في العراك، من الوصول إلى غرفة عمليات العقيد قبل ذلك. كانت هجماتهم ضعيفة ولكن يبدو أنّهم يحرزون تقدّمًا وقد انتقلوا من الدفاع إلى الهجوم.

«هذا يعني أنّ التشنكوي اللعين قد أحرق نخلتي»، قال لنفسه، «يحرق نخلتي ولا يضيّفني شايًا محتجًا بأنّ لا شاي لديه وبأنّه يعاني مثلنا، رغم أنّ النذل أمين الجمعية رفيق لياليه الحمراء»، أضاف الحاج ومن ثم شاهد شجرة التوت في وسط القرية، الشجرة التي ظنّ أنّها سبب المعركة بين العائلتيْن فقد كان للحاج كما لغيره تفسيراته عن أسباب نشوب العراك، إذ كان يرى أنّ السبب الرئيس هو الظل الذي توفره الشجرة للسيارة التي ستُركن تحتها بعيدًا عن حرارة شمس جهنّم، وبأنّ المكان الذي كان دائمًا لسيارة التشنكوي، الفولفو الخضراء من طراز عام سلطة الشعب 1977 إفرنجي، صار مكانًا يتصارع مع الجار الجديد عليه ليركن فيه سيارته التويوتا كورولّا البيضاء من طراز عام نهاية تشاد 1987

إفرنجي. ربما الحرب كانت حرب سيارات ليس إلّا. «أحرقوا نخلتي ولم يحرقوا التوتة»، قال بعد أن لاحظ الهدوء الذي لحق الهزّة واختفاء البشر من الشارع التُرابي الذي تحرسه نباتات الهِندي، تمشّى يبحث عن إنسانٍ في القرية يستدرّ منه أخبار العراك وكأس شاي.

2

هذا كان حال الحاج صباح الخامس من شهر الصيف 1362 من وفاة الرسول[1]، الموافق للخامس من يونيو 1994. وقبل أن تغرس سمومك في البحث عن الرمز الذي يمثله الحاج إمحمّد وما إن كان يرمزُ لفئة الباحثين عن مصالحهم في أوقات الحروب، بائعي ذممهم لمن يشتري أولًا، أود إخبارك بأنّه وفي خضمِّ بحثه عن روحِ إنسان تجول الشارع الترابي وجد ضالته في الحاجّة مبروكة العايبة. استذكر، كما تفعل كل الشخصيات الروائية والقصصية، أيامًا كادت تنمحي من عقله الهرِم، حين كان يتلصّص عليها هي وفتيات أخريات يردنَ الماء من جابية الرومية خلف نباتات الهِندي صحبة الشبّان الأشقياء من جيله، الذين إما ماتوا أو أصبحوا عجَزة مثله ينتظرون الموت. وبينما كان يبحث في ملامحها ووشمها الأخضر الذي ينزلُ من جبينها وذقنها مشكّلًا مثلث الربّة تانيت عن تلك الفتاة ذات الشعر الفاحم في الماضي القديم، وقفت الحاجة مبروكة وقد أصابها الإعياء تحملُ قفّة لاحظ داخلها

(1) مما قدّمته شعبية جهنّم وشعبيّات الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى للعالم هو ابتداع تأريخ «من وفاة الرسول»، ولا يعلم أحد سوى القائد الحي في قلوب الجماهير سبب اتخاذ هذا التأريخ، ولكن كفانا فخرًا هذه البدعة في حد ذاتها دون سياق.

كيسا من شاي الزَّهْرَة. بلع ريقه كما بلعه قبل خمسين عامًا وهو يتلصص عليها. استغل فرصته ليسلّم على الحاجة.

- صبّحك الله بالخير يا حاجّة مبروكة.

قال لها، وراقه الشعر الأحمر الذي صبغته الحنّاء على شيخوختها.

- من أين يأتي الخير يا حاج إمحمّد؟ من وجوه الشوم؟ شرّ لم نره في أيام الروميّة.

قالت وقد أخذت لنفسها مستقرًا بالقرب منه تجلس على حجارة، الحجارة تحت زيتونة، الزيتونة كأنّها كوكب ذري يُبارك ما تبقى من جهنّم يستحق البركة. اقترب منها ليدقق أكثر في محتويات القُفَّة.

- الخير في القُفَّة يا حاجّة، ما شاء الله، من أين جئتِ بشاي الزَّهْرَة؟ قال.

كبر الحاج كما كبرت الحاجّة على الاختباء وراء الرموز والمعاني، هما الآن في سنّ المباشرة، ولا تنفع بينهما المواربة.

- من الحكومة، قاتلتُ الجمعية من أجل نزعه من أيديهم وتخليّت عن كيس أرز من أجله، قالت.

- ولكن أمين الجمعية أخبرني قبل أيام أنّهم لم يعبئوا الشاي في كراتين الفتاة الصينية بعد.

- هل تصدق كل ما يقوله لك أمين الجمعية يا حاج؟ اذهب وطالب بحقك قبل أن يبيعه للمحتالين.

لملم الحاج قميصه وأسرع يجري بعكّازه كأنّ روح الشباب قد عادت إليه فيختفي عن قصتنا قليلًا قبل أن تستدعي الحاجة وجوده. أما الحاجّة مبروكة فظلت جالسة تستظل بظل شجرة الزيتون باحثة في قُفَّتِها عن الغنيمة، دسّت يدها الشبيهة بعروق الشجرة العريقة فوقها لتصل إلى قاع القُفَّة: كيس شاي الزَّهْرَة، كيس سُكر وكيس من بسكويت الشمعدان لأطفال بناتها الخياليات اللائي خلقهن عقلها الهرم، عندما يأتون لزيارتها. تحسّستْ كيس السُّكَر جيدًا ومن ثم حرّكت يدها في الداخل، يمنة ويسرة، لتتأكد أنّها لم تنسَ بخور الجاوي وعلبة النّفّة اللذَيْن اشترتهما من العطّار. بحثت في أرجاء المكان عن أي روح تتلصّص عليها، جذبت علبة النّفّة، وضعت ثلاثةَ أصابعَ داخلها وحملتها إلى أنفها تستنشق المخدّر. سيتعيّن عليها بعد دقائق أن تزور بيوت الحي كما تفعل كل يوم. نظرت لبيت التشنكوي ودعت عليه وعلى من والاه بستين عام من الشّر والفاقة. لم تخجل الحاجّة من الإعلان عن دعمها للعراك كما لم تخجل من أخذ صف العقيد، في النهاية كان الرجل الوحيد في القرية الذي يحترمها ككبيرة نساء القرية. منذ أن بدأ العراك توقفت عن زيارة بيت التشنكوي وكانت تنقل أخبار القرية وما تتناقله الألسن عن العراك للعقيد كل ظهيرة.

بعد أن تأكّدت من مفعول النّفّة في عقلها، نهضت معتمدة على يديها وتحركت تدخل البيت تلو الآخر. كانت أبلة سعاد محطتها الأولى، طرقت الباب وضغطت على زر الجرس من دون توقّف حتى خرجت أبلة سعاد مرحبة بها.

- نوّر الحوش بوجودك يا خالتي مبروكة، قالت أبلة سعاد.
- الله ينوّر فرجك يا بنتي.

قالت الحاجّة، وابتسمت الأبلة سعاد خجِلة من الدعاء المشبع بالإيحاءات الجنسية، مررت أصابعها بين فخذيْها وعرجت بها إلى أنفها لتشم رائحة المسك، بعد ذلك اصطحبتها إلى سقيفتها وأجلستها تحت دالية العنب.

- اليوم حالتي حالة يا خالتي مبروكة بعد أن سمعتُ الانفجار، أنتِ تعرفين، زوجي في الصحراء والأطفال ليس لديهم سواي في القرية، حتى أهله لا يكلموننا، لأنّهم كما تعرفين، وجدوني برّانية عن القرية، أفكر في الذهاب إلى بيت أبي حتى تنتهي العركة، لكن الأطفال لديهم امتحانات ولا أبي ولا أمي يتحمّلان وجودهم أكثر من ساعات قليلة في اليوم.

قالت الأبلة سعاد، وقدمت «المقروض[1]» وفنجان قهوة للحاجّة. أدخلت الحاجّة يدها في الرداء المدثر صدرها وأخرجت طقم أسنانها ووضعته جيدًا في فمها حتى تأكل المقروض. ظلت تستمع لشكوى المرأة.

- سمعتُ أنّ قنبلة الغاز التي أطلقها جمال صباحًا كادت تصيب عين العقيد.

---

(1) المقروض: نوع من الحلويات المغاربية بالسميد وعجين التمر والعسل أو شراب الليمون. يحبّه الأطفال والنساء ويتحاشاه الرجال لأنّ الرجال يحبّون أكل اللكمات والموت.

قالت المرأة.

التفتت لها الحاجّة مبروكة وهي تقضم المقروض وكأنّها تستمع لامرأة كافرة.

- أعوذ بالله من فألك، العقيد ربي يحفظه لا تهزه حتى غارات الرقّاص ريغان لعنه الله. في تشاد خرج حيًا بعد أن التف عليه ألف عبدٍ[1] تشادي ببنادقهم ولا رصاصة واحدة دخلت جسمه، في الغارة كان هو من أسقط طائرات الأمريكان.

قالت الحاجّة ومن ثم بدأت تذكّر أبلة سعاد بما يحاول أن يصوره العدو من ضعف في شخصية العقيد. ألمّت الحاجّة بما يتناقله الأشقياء المشاكسون ساخرين من رجلٍ لا يحمل صوتًا ينقله لهم بينما يقف أمام غرفة عملياته يخطبُ فيّ أبناء الحي داعيًا إياهم للقتال معه وطرد تاجر البوخة وتنظيف القرية من الخونة والعملاء والرجعيين. يضحكُ أولئك الأشقياء لأنّهم، بحسب ما ترى الحاجّة مبروكة، لا آذان لهم ليسمعوا ما يقوله.

- الكلاب الضّالة لا تعرف أنّ العقيد وبعد أن رمى من لا يجب أن أذكر اسمه بقنبلة الغاز على باب بيته، أمسك بها ورماها للأعلى ليضحّي بجدار غرفة العمليات.

قالت الحاجّة توضح للمرأة الجاهلة في منظورها أصلَ الخبر. بحثت في الصينية عن مقروض ولكن لم تجد.

---

(1) الحاجّة مبروكة امرأة عنصريّة.

- أين بقية المقروض يا بنتي؟ قالت الحاجّة.

- هذه آخر قطعة يا حاجّة والله، لم أصنع جديدًا لأن السميد انتهى وأمين الجمعية قال لي بأنّ موسم حصاد القمح في الكُفرة لم يحِن بعد، قالت الأبلة تعتذر.

- هل تصدقين كل ما يقوله أمين الجمعيّة؟ سألتها الحاجّة.

- كيف حال ابنك في روسيا يا حاجّة؟

قالت الأبلة سعاد تريد تغيير مجرى الحديث، فأمر العراك لا يهمها، ولم تحب خوض الحاجّة في أمور لا شأن لها فيها. الأبلة سعاد لم تفهم حتى من أين يأتي السميد وما علاقته بالكُفرة. كانت سعاد مُدَرِّسة رسم في مَدْرسة القرية وكل ما تعرفه في الحياة هو تقديم حصص الرسم بحسب برنامج المدرسة الدراسي وتعليم الأطفال كيف يرسمون تروس الإنتاج وحبّات القمح والغارة الأمريكية ورسم وجوه الصهاينة القبيحة وموسم الربيع والصيف والحياة في جهنّم. كانت تحب سماع قصص الحاجة مبروكة عن روسيا وابنها الوحيد الذي يعيش فيها مغتربًا عن أمّه.

- الحمد لله، اتصل بي بالأمس وأخبرني بأنّه قتل بيديه دبًّا ضخمًا.

قالت الحاجة وهي تفرد ذراعيها لأقصى ما تستطيع، لتوحي بحجم الدُب، ثم تذكرت أنّ عليها أخذ نفَس من النّفّة مرة أخرى، ففتحت العلبة، وجذبت بأصابعها الثلاثة كمية أخرى إلى أنفها، راقبتها أبلة سعاد بشغف كما كانت تراقب زوجها وهو يدخن سجائره، متخيلة نفسها تحمل ولو سيجارة واحدة بين أصابعها.

- دب؟ ما شاء الله، كيف أمكنه فعل ذلك؟

- ابني، ما شاء الله عليه، لم ألقمه منه.

ومسكت الحاجّة صدرها تريه للمرأة الخجول ثم أضافت:

- كان يرضع من الذئبة في كهف اختبأنا فيه عندما كان أولاد الروميّة يبحثون عنّا ليلقوا بنا في الحبّيلة، منذ أشهره الأولى كان يصارع الأفاعي وهو من أجلى الضِّباع عن جهنّم ولولاه لرأيتِها تتحالف اليوم مع من لا أريد أن أذكر اسمه.

كانت الحاجّة تفتخر بوحيدها وتروي عنه قصصًا اعتقد الكثيرون أنّها تختلقها، لكنها صدّقتها حتى وإن كانت من نسج خيالها كما قد يظنه عقلك الصغير الذي يدّعي المنطق الآن، أعرف أنّك تحاول ربط مولد ابن الحاجّة بتاريخ احتلال الروم لبلادنا.

- هل كان سيصارع جمال إذا كان موجودًا في القرية؟ سألت أبلة سعادة.

- كان سيقتله بنظرةٍ من عينيه فقط.

أجابت وهي تتأفف من أسئلة المرأة، قالت بحزم:

- دعينا الآن من أمر ابني، جئتُكِ لأخبركِ بأنّ العقيد يأمر أهالي القرية كلهم ألّا يتعاملوا مع الشيطان، وإذا ثبت ووجد أنّ أحدًا يخونه فليعتبر نفسه خارج القرية.

قالت الحاجّة ونهضت، بحثت في ردائها عن الجزء الذي كان يحمي رأسها من نظرات الحاج إمحمّد الشهوانية، سمّت باسم الله ومشت نحو الباب.

- أنتِ تعرفين يا حاجة، أنا امرأة وحيدة ولا أعرف أحدًا في القرية سواك، طبعًا من دون أن أذكر أهل زوجي الذين يكرهونني، قالت أبلة سعاد بينما تودّعها.

- أعلم، لكن أنا أنقل الخبر فقط.

قالت الحاجّة وخرجت من الباب إلى الشارع التُرابي مرة أخرى. تنقّلت بين البيوت جميعها، تدخلها، تنقل الخبر وتستشف منهم آراءهم ومعنوياتهم وما سمعوه من أخبار قد تنقلها إلى العقيد. تأكل وتشرب وتأخذ هدايا ما أمكنها منهم. تستغل أحد الأطفال ليحمل عنها قُفَّتها بعد أن تخبئ علبة النّفّة في صدرها، تنتقل إلى بيتٍ آخر، وهكذا دواليك، حتى نزلت في الظهيرة عند بيت العقيد.

- أمّي، إنّها خالتي مبروكة العايبة.

قال ابن العقيد الصغير بعد أن وجد العجوز أمام باب البيت تنتظر أن يُفتح لها. جال نظرها في جبل القمامة الذي وضعته شيعة جمال أمام جراج العقيد، واضعةً مِحرَمَة على أنفها يملأها الغضب والقرف. «الله يعيّب ظهرك»، تقول للفتى فيجري هاربا منها، ثم تلج مربوعة العقيد من دون استئذان.

- الوالد سألكِ عن ابنك يا حاجّة مبروكة.

قال لها الترجمان الذي يجلس بجانبه أخوه هيثم عضلات يراقب تحركاتها. كان هيثم يجلس وخلفه مجموعة من الهِراوات والسواطير، كانت الحاجّة تراقبه في العشية يحملُ إحداها صحبة

كلبه الدوبرمان «رِكس» جالسًا أمام باب بيته يترصد التشنكوي وشيعته. الكلب سيموت بعد هذا اللقاء في إحدى المعارك، إذ سيلقمه أحد شيعة التشنكوي زجاجة سعادة تحولت إلى مولوتوف يدفعها في مؤخرته الكلبيّة لتحترق أحشاؤه. كان الترجمان أقل إخوته مشاركة في العراك. أقل حتى من الفتى الصغير.

- الحمد لله، أخبرني بالأمس أنّه يصارع الذئبة في روسيا.

قالت وقد نسيت الحاجّة أي الحيوانات صارع ابنها. علقت نظرها في صورة للعقيد ملوّنة بالذهبيْ في شبابه وحاله الآن هزيلًا يمسحُ الحفرة داخل رقبته بين الفينة والأخرى من السوائل اللزجة.

- أرجو ألّا يكون قد أكل لحمه.

قال هيثم عضلات مع ضحكة خبيثة خبأها حتى لا تسمعها الحاجّة.

- أنتِ تعلمين يا حاجّة، لحم الذئب يحوّل البشر إلى ذئاب، أضاف.

- كانت ملامحها قد امتلأت بالدهشة.

- سألكِ الوالد، بماذا يمكننا مساعدتكِ يا حاجّة؟ قال الترجمان.

- أريد صورة، قالت.

وبحثت في وجوه الجالسين من أبناء وزوجة العقيد، كانت كلها تفيض بالتساؤلات، أضافت:

- أخبرني المصوراتي أنّه يمكنه أن ينسخ الصور ويكبّرها، قلتُ لا بد أن أحصل على صورة لولدي العقيد أعلّقها في بيتي

كما يعلّق الناس في القرية صور القائد في مدخلها، وفي كل مرة أراه فيها أسأل الله أن يحفظه من كل شر.

همست زوجة العقيد وهي تصنع الشاي، همست لابنتها الصغيرة التي همست بدورها للفتى، فنهض يجري يهمس في أذن هيثم الذي مال ناحية الترجمان ليهمس لأبيه بما قالته أمّه. بحثت الحاجّة في البساط تحتها بيديْها، كانت هنالك شعرة بيضاء أخطأتها مكانس نساء البيت، أخذتها ووضعتها في صدرها بحركة سريعة، وظلت تحكي لهم عن القرية وما سمعته. قالت بأنّ أهل القرية أهلكهم القتال ولم تنسَ أن تحكي تهرّب أمين الجمعية عن توزيع الشاي والدقيق. كان أمين الجمعية يملك قوة لا يملكها العقيد، إذ لا يمكنه في حالته هذه أن يواجهه رغم معرفته بتحالفه الخفي مع جمال، كان الأمين يملك رئيس مركز الشرطة في جيبه، كما أنّ قصره كان بعيدًا عن كل بيوت القرية.

- سنفكر في موضوع الصورة يا حاجّة، قال لها الترجمان.

بعد أن أتمّت جولتها في القرية، حملت نفسها متجهة إلى بيتها، مرّت بمجموعة من الأشقياء العاطلين عن العمل الذين كانوا يضيّعون أيامهم جالسين تحت ظل شجرة بونسيان. كانوا يضحكون، وعندما مرّت بهم حيّوها لكن بمجرد مرورها سمعتهم يضحكون مجددًا. شعرت بسخريتهم منها، فسبّتهم في نفسها. ولجت باب بيتها، كانت الباحة على غير حال بيوت القرية، مليئةً بالنباتات والأشجار والقطط البيض منها والسود، مظلمةً هادئةً لا

حركة فيها. فتحت الباب الخشبي، وجدته هناك، نحيفًا كما تركته في الصباح، واقفًا ينتظر منها أن تعطيه علبة سجائره. قالت له: «هل اشتقت لأمّك يا حبيبي؟». ثم أعطته علبته ومسحت على وجهه. «لا تخف، قريبًا ستعود إلى القرية».

أخرجت شعرة العقيد البيضاء من صدرها ووضعتها في زجاجة، وضعت الزجاجة في صندوق، والصندوق حشرته داخل خزانة ملابسها.

3

ولأنّك الآن تحاول ربط خيوط القصة وتبحث عن النمط الذي أستخدمه في حكايتها لك، أودّ إخبارك بألّا تجهد نفسك، فالأمر لا يستحق، فقط استمتع بما تسمعه مني كما تستمتع الحاجّة مبروكة بنسج الحكايات من خيالها لتحمي ابنها من الفضيحة.

كانت الحاجّة تؤمن بشدة أنّ ابنها، الذي قد لا نجد له اسمًا في هذه الحكاية، يعيش في روسيا ويصارع الحيوانات البرية التي تفوق جسده الهزيل قوة وشراسة؛ بل كانت تؤمن، أيضًا، بأنّ جسده يتحقّق أمامها كل يوم. ترى أعقاب سجائر الرياضي في المطفأة، حيث يقبع طيلة النهار يستمع لأغاني بوب مارلي، تنظفها له قبل أن تذهب يوميًا في رحلة الصباح؛ كانت تؤمن بأنّه شبحه الذي خلّفه لها لتعتني به، لتتغلب على وحدتها، وحدة الأم في فقدان ابنها. ارتضت لنفسها أن تعيش ذلك الدور، فتركت الشجيرات والنباتات تغزو الباحة، أطعمت القطط السود لتستأنس العيش معها، حتى يخشى الأطفال الذين يساعدونها في حمل أثقالها من الولوج إلى الباب الخشبي، كل ذلك لتحمي الشبح، لأنها مؤمنة أيضًا أنّه إذا عرف العقيد بوجود شبح في بيتها قد يهاجمه ويخرجه ليفرض عليه العدالة، فلا مكان للأشباح والجن بيننا، لهم عالمهم ولنا عالمنا.

عاد ابن الحاجّة في ساعته، يجلس كعادته في غرفته ينصتُ لبوب مارلي يحكي له عن حياة من دون حرب، حياة بسلام وحب وعيش رغيد، يتطلّع إلى قضبان نافذته متأمّلًا في ما فعله حتى يستحق هذا السجن الذي يعيشه.

قبل أن يشتدّ العِراك بأيام، صعّد السافلُ ابن الحاجّة، وبالخطأ، جمال التشنكوي ليكون أمينًا على جهنّم. لاحظ هيثم عضلات ابن العقيد كيف يعدّ أبناء القرية الذين رفعوا أياديهم وصاحوا بالموافقة على أن يتولى التشنكوي الأمر. اختفى ذلك اليوم بين الجموع عندما أحسّ بهيثم عضلات يقترب منه، ارتطم بالأجساد المتلاصقة وانغرس جريًا بين غابة النخيل لا يلتفت إلى الوراء، ولم يتوقف حتى انقطعت أنفاسه. في تلك اللحظة، وجدته أمُّه مرميًا بعد أن تصاعدت الصياحات في ساحة التصعيد التي تلونت أعلامها وأوزارها الخضر إلى الأحمر بالتحام الرجال بالهراوات والسيوف والسكاكين. لم يمت أحد جراء الديمقراطية المباشرة، واضطرت الشرطة أن تفكّ المعركة بأن يتوقف الدهماء عن الجري وراء الكراسي ويبقى أمين الجمعية، أمينًا للقرية. كان ابن الحاجّة مبروكة قد سمع باجتماع سرّي لأمين الجمعية يخطط فيه للانقلاب على التصعيد، وفكر أنّ عليهِ أن يخبر القائد بأي طريقة. وعندما ذهب قبل التصعيد إلى رئيس مركز الشرطة، اضطر أن ينتظر لساعة قبل أن يأذن له بالدخول. وجد صورة القائد شامخًا واضعا رأسه على يده اليمنى ينتظر النبوءات التي يوحى بها إليْه، أخبر رئيس الشرطة بكل ما يعرفه، فنصحه رئيس الشرطة بأن

يتوقف عن الاستماع لما تقوله أمّه الخَرِفَة. كانت أمّه الوحيدة المؤمنة بما يقوله لها، طبّبته ذلك اليوم، وأخبرته بألّا يقلق، فهو على كل حال سيسافر إلى روسيا قريبًا. ثم مع مرور الوقت بدا، فجأةً، بالنسبة لها مسافرًا منذ سنة وبعدها منذ عقد. كان سهلًا على أبناء القرية أن يصدقوا سفره، فهو كما في هذه الحكاية، كان مجرد شخصية هامشية، نكرة يخطئ الجميع في وضع اسمٍ له.

وليفهم عقلك التافه العلاقة المعقدة بين الأم وابنها، رغم عدم حاجتي للشرح، سأخبرك بأنّ الحاجة مبروكة قد ولدت ابنها في الشهر السابع، كان حجمه حينها مثل جروٍ وُلِد معه في اليوم نفسه، اعتنت به لوحدها بعد أن مات الأب بقضبان اللجان الثورية الكهربائية لأنّه فضّل العيش تحت الألوان الزرقاء والحمراء والصفراء والسوداء التي لا تبعث في الإنسان روح الأمل، بل تمثل الخراب والدمار واليأس، كعادة الآباء في الموت قبل بداية رحلة درامية للأم. ربّته الحاجّة وزوّدته بثدييْها لسنوات خمس حتى ينجو من وزنه الضعيف.

ولأنّ على الشاب أن يكشف للشارع وجوده في القادم من الحكاية، سقطت كرة لأطفال ملاعين كانوا يلعبون في الساحة الترابية المجاورة لبيت الحاجّة، كانت الكرة تتدحرج حتى وصلت تحت نافذته. نظر لها بشغف، فهو ورغم كونه لاعبًا احتياطًا في دوري شباب القرية الأسبوعي، عشقها وأحب تشكيلها الذي بدا له كونًا آخرًا يحمل أسرار الوجود الإنساني، لم تحن له الفرصة

لتسديدها يومًا في حياته إلا لركلها للاعبين الحقيقيين، أولئك الشجعان والموهوبين بما يكفي والذين يعرفون صاحب الكرة بما يكفي لركلها في أرض الملعب. بحث عن طيف أمه لكن الحاجّة كانت مشغولة بتحضير الغداء واستنشاق النّفّة. تحرّك حتى الباب الخشبي، يخشى الخروج إلى الباحة. مضى شهر منذ آخر مرة حطت فيها قدمه أرض الباحة، كان يراقب الكرة من الباب الخشبي بينما يحاول أحد الأطفال التسلل من السور متمسكًا بنقش غزال كان يزيّن أعلى السور، ولأنّه كان مغرومًا ولاهيًا في التمعن في تفاصيل الكرة المثقوبة والمحشورة داخلها كرة من النايلون بعد أن ثقبت أمّه جلدها الأصلي قبل أسبوعيْن لمّا شاهدتها تتدحرج في الباحة؛ لم يلاحظ يد فتى تتمسك بعنق الغزال وتقترب من الوصول إلى الأعلى، فحاول التقدّم رويدا إلى الكرة، لكن ظلام البيت بالداخل كان يدعوه للرجوع، ماءت القطط كما تموء القطط، وزغردت العصافير وتبرّزت كما تزغرد العصافير وتتبرّز، وقفز الفتى الذي صار الإنسان الوحيد الذي يراه عدا أمه منذ زمنٍ نسيه. سمع حسّ الفتى وهو يقفز فتراجع خائفًا إلى داخل البيت. راقب الفتى بينما يجري نحو الكرة ويمسكها منصتًا لأقدامه، لكن الفتى كان سريعًا، لم يرغب في مغامرة الدخول إلى البيت حتى لا تكتشفه العجوز التي يخاف منها الأطفال. أسرع هو إلى غرفته وقد أخذ مكانًا في النافذة يمكّنه من رؤية الفتى يركل الكرة إلى الأعلى. يصيح الأطفال خلف السور، يلتفت الفتى إلى الخلف قبل المغادرة لينظر للنافذة فتقع نظرته

في عينيه تمامًا، يهرب معتقدًا أنّه غولة بعد أن لاحظ وجود قطة سوداء تقترب من النافذة، جرى نحو السور وقفز أسرع من دخوله إلى البيت من دون الحاجة للتمسّك برأس الغزالة المنقوش في السور، كما يفعل حيوان الودّان في أودية أكاكوس.

4

ولأنّ الأطفال وتاريخهم في المعارك والحروب ليس مهمًا، فلا أحد يذكر وجودهم ولا أساميهم؛ سأستخدم الفتى قليلًا للوصول إلى الشخصية الرابعة في هذه الحكاية المملّة والتي لا أعرف حتى الآن لماذا عليك متابعة قراءتها إلّا لكونك إنسانًا فاشلًا ولا تقدر على قراءة أمهات الكتب وجدّاتها مثلي، وهذا شيء جيد، الفشل حسن، لا حاجة لنا للمزيد من المبدعين والفنانين والمفكّرين والسياسيين والمنتجين على أيةِ حال.

قفز الفتى إلى أرض الشارع متحرّرًا من بيت العجوز، آلمته قدمه، لكن هذا هو العمر الذي يكتشف فيه الإنسان الألم من دون مخاطرة كبيرة في أن يعيش معه طيلة حياته، جرى سعيدًا إلى الكرة، كان الشباب الأشقياء في تلك اللحظة يجلسون مقابل الساحة يشاهدون الأطفال يلعبون، فقرّر أحدهم أن يمسك بالكرة التي ركلها أحد الفتيان ناحيته، ليمارس دوره في التنمّر، إذ كان أضعف وأقل حيلة من أن يمارسها على الأقوياء الذين يحرّكون الشارع بعراكهم في الناحية الأخرى من القرية. أخذ الكرة وظل يستظرف ويلقي النكات ويطلب من الأطفال طلبات يعرف أنّهم لن يتمكنوا من تنفيذها، كأن يسلموه عهدة مالية بمقدار مليون دينار وما إلى ذلك من السخافات. ضحك الشباب الذين

لم يكن لديهم أي شيء آخر يفعلونه، وبعد أن حقّق المُمسك بالكرة ظرافته وركلها إلى أعلى ليشاهد جيوش الأطفال تجري وراءها كقطيع من الأغنام، ضحك هو أيضًا وجلس تحت شجرة البونسيان ليعود إلى رفقة أصحابه.

- آه الأطفال، لا يفقهون أي شيء في هذه الحياة، قال وقد حرّك يده معلنًا انتصاره.

- الأطفال يفقهون أكثر منا، قال آخر.

- الأطفال يلعبون ولا يتركون لهذا العراك أن يوقف حياتهم.

قال أحدهم وقد بدا متجهّما. وسأسمحُ لك بأن تعتقد بأنّه يرمزُ للمثقفين، إذ ولأخبرك الحقيقة كان الوحيد في القرية الذي قرأ «القرية القرية الأرض الأرض وانتحار رائد الفضاء» للأخ القائد، وهو الوحيد بينهم من قرأ جريدة في حياته، ليس بدافع حبه للقراءة، بل فقط لأنّه كان يعمل في كشك لبيع الكتب والجرائد والمجلات بالقرب من الجمعية، قبل أن تأخذه أمانة القرية بعد أن تثبتت من أنّ لا أحد في القرية يقرأ فحولته إلى مكتبٍ توزع منه الأحذية في خطوة جادة لتطوير عمل الجمعية.

- ها قد بدأنا حصّة النّكَد، ماذا تقصد؟ قال الظريف، مشاكس الأطفال.

- أقصد أننا نضيّع وقتنا بين ارتشاف الشاي والبحث عن النكات ومشاكسة الأطفال ولعب الكارطة، بينما هذه العركة توقف كل شيء. بدأت أفكر في الخروج من جهنّم والذهاب إلى الجنّة، حيث الحياة أقل سوادًا من هنا، قال بائع الجرائد.

– على سيرة الكارطة، أين ذهبت؟ قال المشاكس وقد تجاهل كل ما ألقاه بائع الجرائد.

– ومن سرق يوم الجمعة؟ قال المثقّف محاولًا إلقاء نكتة لم يفهمها الجمع.

– العقيد سرقه، قال المشاكس.

تناقلت ضحكات خافتة بينهم، بحثوا في المكان عن أذنٍ قد تسمعُ الكلمات.

– بالمناسبة، العقيد منع أي تواصل مع التشنكوي، قال إنّها خيانة للقضية، أضاف المشاكس.

– أي قضية؟ قضية حق ابنه في الاستمناء على عيشة بنت التشنكوي؟ قال المثقف.

– قضية حقّه في شرب بوخة جيدة بسعرٍ مخفّض، قال المشاكس.

– هل تعلمون أصل القضية، أصل الحكاية؟

قال أحدهم، كان ساكتًا يستمع لحكاياتهم بينما يخفي سيجارة عن المارة يدخنها بهدوء. وكان الوحيد بينهم من يعرف كيف يحكي قصة. لم ينتظر منهم أن يجيبوه، عدّل من جلسته حتى يتوسّط الجمع بعد أن سنحت له الفرصة في الدخول في الحكاية. لم يكن يعرف الحديث إلا بالحكايات، الحكايات كانت منجمه، وهو يعرف، أو يظن نفسه يعرف، كل حكاية تدور في القرية.

– تعرفون الوشم في كتفِ جمال صحيح؟ سألهم.

قرّب سيجارته التي يخبّئها في كف يده بين إصبعه الإبهام والسبابة، قرّبها من فمه وجذب منها بسرعة. هزّ البعضُ رأسه نفيًا، والبعضُ تعزيزًا للحقيقة، أما المثقّف، فأحبَّ أن يكون مختلفًا.

- تقصد صورة مادونّا؟ قال المثقف.

وكان على حق في الاشتباه. فجمال كان جسمه معرضًا للأوشام، أحدها وشمه عندما كان في الإمبريالية الأمريكية وشاهد حفلًا لمادونّا، فقرر في ليلة الحفل أن يشِم جسدها الجميل على كتفِه اليمنى، ووشمًا آخر في صدره كتب عليه في رحلة إلى تركيا تاريخ حياته الجديدة، الحياة التي رُزِق بها بعد أن عاش داخل زرائب بلاد التشاد، وأوشام أخرى على قدميه وظهره ورقبته غزت جسمه ليخلّد قصصًا وإناثًا عرفهن. لكن خدّوجة ووشم القلب الذي يلفُ اسمها، كان الوشم الوحيد الذي خطه في القرية بعد أن ترجّى وشّامًا قديمًا تاب عن الوشم أن يكتب الاسم على كتفه اليسرى حيث يمكنه أن يقبّل الاسم.

- لا، وشم أمّك. قال له الظريف.

- أمّك يا عندين أمّك.

قال بائع الجرائد، لا يراعي قيَم الأسرة الجهنميّة ولا آداب الحديث مما يرغمني على الاعتذار لك، أعتذر عمّا قاله رغم أنّني لم أقترف الخطيئة.

- أمهاتكم كلّكم، دعوني أكمل الحكاية يا أبناء الربِى. قال الحكواتي.

عندما وجدهم صامتين، استذكر حيلة الطفولة التي كان على الجميع أن يذعن لها، «سكت الجميع وتكلّم الحمارُ». ثم قال: «وأنا لا أمانع أن أكون الحمار»، تابع حديثه، فقال: «خدّوجة

هذه كانت، كما تحكي لي مصادري، جميلة الجميلات ورائعة الرائعات بين عاهرات المدينة، أحبّها جمال وشغف بها، وامتص من رحيقها ما امتصه، خدَّرته بثدييْها اللذَين كانا يدرّان حليبًا ألذّ من حليب الجنّة».

- أستغفر الله.

قال أحدهم فحدّجه الحكواتي، وصمت. تأفف الجمع من استحضار الرهبة الربانية في موقف يحتاجون فيه لأن يحرّكوا ما بدواخلهم من شهوة، فهم لم، ومن المحتمل لن، يطارحوا امرأة أبدًا.

- عليك لعنة الله، دع الرجل يحكي.

ردّ عليه الظريف بعد أن نزل لعابه وهو يتشهّى الحليب، حليب خدّوجة، فأكمل الحكواتي مستمتعًا بدوره الذي يمنحه الرتبة الأعلى بين الجماعة: «المهم، وبعد أن غرق التشنكوي في حب خدّوجة حلف لها أن تتزوجه، لكنها امتنعت. كان لخدوجة دسيسةً، فقد أوقعت بالعقيد بطريقة ما عندما كان الرجل نفسه يهرب من زوجته ويعيش حياته في المدينة صحبة الفودكا».

- الفودكا؟ ما هي الفودكا؟ قال الظريف.

- بوخة روسيّة يا غالي... يقولون إنّها تزيد من رغباتك وتقوّيك حتى تجعل النساء تجري خلفك.

سمح الحكواتي للظريف بإبطال السرد، أخذ منه سيجارة، أشعلها له الظريف، «حاشاك يا غالي». قاله له، مراعيًا آداب إشعال السجائر عندنا.

«المهم، يقولون إنّ العقيد كان يضاجع كل عاهرات المدينة، كان يحبُ أن يسمع صراخهنّ الحار بعد أن فقد حنجرته، وكأنّه يعوّض بذلك فقده لها. كان ذلك إلى أن تعرّف على خدّوجة عن طريق واحدٍ من الجنود القدامى كان صديقًا للتشنكوي. دخل عليها العقيد وفعل فيها ما يفعله في رفيقاتها، ولكنها لم تكن تصرخ البتّة، بل كانت تضحك. وكان عندما ينتهي منها ويخرّ بجانبها على السرير في إحدى شقق الروميّة، يتكئ، فتخبره عن حبيبها الأسطوري، الذي كان يلمّ الجيران عليها من الصراخ بسبب قوّة ما يفتعله فيها. عرف العقيد اسمه وحفظه، وبحث عن مكانِ عيشه، وقرر الانتقام منه. كان التشنكوي حينها يقطن في الحي وقد وشم اسم خدّوجة، حبه الأبدي، ولكن عندما حلّ العقيد في القرية عرف أنّ خدّوجة رضيت بالتشنكوي زوجًا لها، فاستشاط العقيد غضبًا ودبّر للانتقام العظيم».

- أتقصد أنّ خدّوجة هي خيرية زوجة التشنكوي؟

- خدّوجة كان اسمها الحركي.

قال الحكواتي. دار بنظره ليرى وقع هذا الكشف على مَنْ حوله. كانت المفاجأة قد أخرستهم، فأكمل: «المهم، بدأ العقيد يراسل خدّوجة عندما يغادر التشنكوي البيت، توسّل لها مرارًا، إذ عرف أنّها لم تعتزل الخدمة، بل ارتقت فقط إلى رتبة الباترونة، فكانت تأتي بالعاهرات سرًا لمن يحب من رجال القرية لتدعم زوجها في عمله تحقيقًا لأهداف الأسرة المنتجة التي دعا لها القائد في المؤتمر الشعبي العام. امتنعت خدّوجة، وأخبرت

زوجها بأمر العقيد، فدبّرا معًا للإطاحة به. وما إن خرج التشنكوي من بيته، حتى أرسلت خدّوجة إلى العقيد رسالة عبر ابنتها عيشة، مفادها أن يأتي لها الليلة، فالأبناء في زردة والرجل في سفر، وهي جاهزة هذه الليلة لتعيش معه السَمَر. اشترى العقيد العسَل السحري ودهن خرطومه بأعشابٍ ودخل عليها في الليل. في غرفة نومها شمّ رائحة المكيدة، فقد كان التشنكوي يلعب مع زوجته اللبّيدة. نظر إليه وقال تعال يا أفندي... أحتاج مساعدتك في تلقّي الحليب».

ضحك الجمع والحمد لله، إلا ذلك الذي استغفر ربّه، فقال:

- الله، ما هذه البذاءة؟

- أرني موقفًا أكثر بذاءة مما نحن فيه.

قال له الحكواتي وأشار بيده إلى الحي، من مكان جلوسهم إلى بيت الحاج إمحمّد وخيط الدخان الخارج من نخلته. بعد برهة من موجات الضحك الساخرة الممزوجة بالسُعال، قال الظريف:

- إذًا، فالعركة عركة خراطيم.

- العركة وكل العركات، كانت، ودائمًا ستكون، معارك خراطيم. قال المثقف، بائع الجرائد، التافه السخيف، الحقير النذل، الذي لا فائدة منه في مجتمعه.

- الله الله... من أجل هذه الدُرَر نسمح لك بالجلوس معنا. قال له الظريف.

ضحك الشباب، ارتفعت ضحكاتهم إلى أعلى حتى ارتقت

فوق النخيل الذي يحمي جهنّم من فداحة موقعها الجغرافي والثقافي والجيوسياسي، وانتقلت الضحكات للحظات إلى جدران البيوت الساكتة تدفع الأبواب الخشبية الموارِبة وتمر من الممراتَ وتغازل الفتيات اللائي لم ينظرن إلى الشارع منذ أن كنّ في زمن الطفولة يلعبن النّقّيزة أمام عتبات البيوت. سكت كل حي في القرية للحظات، حتى تحتفي الخلائق بطعم الفرح المغشوش، وبطعم الشباب والحياة القادمة، وليرتاحوا ولو للحظة من السماءِ السوداء التي تطفو فوقهم. وللعجب، حاربت ضحكاتهم الدخان الذي كان يغطي البيوت المحيطة بالفريقيْن المتحاربيْن، ودفعته إلى الخارج، حتى يظهر بطلنا، بطل هذه الحكاية: المغوار، الرجل العظيم، الذي سيحرّك الحوادث بشهامته، هناك عند شجرة التوت المباركة التي كان يغزل منها باشا طرابلس الحرير. ظهر عيسى العربي، الرجل الحوّات يصيحُ في الناس أن يشتروا منه السمك.

- حوت حوت، سردينا... سردينا، كوّالي، كوّالي، تريليا، أقرب على الورّاثة.

5

- ما الذي تفعله هنا يا بقابوندي؟

كان عيسى قد تحيّن فراغ شجرة التين من السيارات حتى يستطيب بظلها ويعرض بضاعته لأبناء القرية. جاء من قرية بحريّة قريبة من جهنم، مستخدمًا سيارة عمّه بيجو 404 بيك آب «عقرب الريح» كما كان يسميها أهل البلد، ليتجول في القرى المجاورة ويبيع السمك. كانت تلك الزيارة أولى زياراته لجهنّم منذ بدء العراك الذي لم يعرف عن أخباره شيئًا، ولهذا فغر فاه عندما نعته هيثم عضلات ابن العقيد بالبقابوندي، مشبهًا إياه بالمتسوّلين. لم يرتضِ الشتيمة، كما لم يرتضِ السؤال، قفز عن ظهر فرسه الحديد، ألقى بالأسماك التي كانَ يرفعها عاليًا لأهل القرية حتى يشتروا منه، تحررت سمكة سردين قافزة من يده إلى مستقرها حتى يستلذ جسدها الميّت بالثلج.

- مَنْ هو البقابوندي؟ صاح.

أوقف صياحه الأنفاس في القرية وقطع ضحكات الشباب الذين جاؤوا يتلاحقون جريًا من تحت شجرة البونسيان لتبيان الشخصية الجديدة التي تريد تحدّي هيثم عضلات، الفتى العشريني الذي يرقّد أهل القرية قبل مغيب الشمس. دارت

الدوائر واتخذ الناس موقف المتفرج. أخرجت الأبلة سعاد نصف جسدها من نافذة غرفة نومها في بيتها ذي الدورَيْن لتشاهد المعركة وأطلَّ ثدياها المحرومان على الشارع، وقد أحبّت اللون الزيتوني لابن البحر. خرجت الحاجّة مبروكة إلى الجنان تناقش إحدى الجارات من وراء الحجاب عما يجري لتسجل ذلك وتنقله إلى العقيد المتقاعد. توقفت الكرة في ساحة اللعب عن الدوران واختبأ الأطفال خلف نخلة لمشاهدة العراك الجديد. عاند الحاج إمحمّد دوران رأسه وصداعه وخرج من باب بيته ليكون أفضل المتفرّجين. خرجت شيعة التشنكوي لتشمت من عدوّها في بلكونة منزله. توقّف العمل في الجمعية وأغلق الأمين الباب طاردًا الناس الذين يتسوّلون الأرز والكسكس من الدولة. تنافر الجسدان، وكان الجميع ينتظر أن تبدأ المعركة.

- عجب، لا أرى في هؤلاء الناس من حولي إلا بقابوندي واحد، هل يمكن أن تخمّن من هو؟

قال هيثم عضلات للحوّات عيسى العربي، وألقى أخوه له هراوة ليستعدَّ للضرب، فأمسكها بمهارة الفرسان. كوّر عيسى العربي يده.

- أنت. قال عيسى.

- ألا تعلم مع من تتحدث؟ ردّ هيثم عضلات غاضبًا.

- اسمع، أنا لا أرغب بإهانتك أمام أهل قريتك، أريد فقط أن أبيع السمك.

- سأشتريه منك أنا.

قال هيثم عضلات، وانهال على عيسى بالهراوة. فالضربة الأولى نزلت الهراوة على كتفه، خُلِعت الكتف من مكانها وأحسّ عيسى بعذاب الجحيم ينزل عليه دفعة واحدة، الضربة التالية وجّهها هيثم على كتفه الثانية. أركعه، كان عيسى أشبه بيسوع قُبَيلَ صلبه، أو هذا ما خُيِّل لأهل القرية وهم متحلقون حول الرجلين. أخذ هيثم ذراع عيسى ولواها، فأصدرت صريرًا كأنّها بابٌ صدئ لم يُفتح منذ عهود الأجداد الأُوَل. رمى هيثم الهراوة، كوّر يده اليُمنى ودفعها بقوة في بطنِ ضحيته، تدفق الدم من فم عيسى دفعة واحدة ليبدأ في سقاية شجرة التوت المتعطشة لذريّة آدم. أخرج هيثم يده من بطن الضحية، قفز انتصارًا يصيح في أهل القرية تارة، وينظر إلى شيعة التشنكوي تارة أخرى ثم ينظر لضحيته. بعد ذلك، ركض نحو عيسى وانهال عليه ركلًا، الركلة الأولى أخرجت أنينه وهو يتلوى كخروفٍ مذبوحٍ في نهار صيفٍ، الركلة الثانية جاءت في وجهه، فألقت بلسانه خارج فمه وأفقدته سنًا ولطخ دمها ساق هيثم، هاج الجلّاد، فصاح: «أتلطخني؟ أتتجرّأ أن تلطخني؟ لقد لطختني، كيف تتجرأ على تلطيخي؟ هل أنت مجنون؟ من يلطّخ هيثم عضلات؟». ركله، جاء مشط القدم هذه المرة في روح الضحيّة، هناك أسفل البطن بين الفخذيْن، فأصدر عيسى صياحًا يشبه صياح الموتى المكتوم. اتكأ هيثم عليه، كان الناس في القرية يتفرجون، لم يتحرك أيّ منهم نحوهما ليفضّ العراك، أمسك هيثم بشعر عيسى وصفعه على وجهه، تلطخت يده بدمٍ ممزوج بالتراب مخلوطٍ بالعرق والمخاط. مسح السائل في ثيابِ ضحيته ثمّ صفعه مرة أخرى.

- إذًا، قل لي... بكم السردينة؟

حاول عيسى أن يتلفّظ بالكلمات، لكنه لم يستطع. كان يشعر بثقل العالم أجمعه على أكتافه، لم يشعر بأوجاعه الأخرى، كان وجع الأكتاف يؤكد، أنّ الإنسان دائمًا، لا يهتم إلا إلى الوجع الأول، وجع الولادة على سبيل المثال.

- ماذا؟ ماذا قلت؟ أخبرني الآن بكم السردينة؟

كان هيثم يتلذذ بإمساك ضحيته من شعره، أخرج من جيبه موسىً، مررها على عينيْ غريمه، ليحذّره قبل أن يفتعل فعلته.

- هيّا، ها ها ها، أخبرني... أنا فقط أريد أن أشتري سردينة، فأمي تحبها.

قال له وغرس الموسى في بطنِ عدوه. تصرّفه أذهل أهل القرية، لكن نظرة واحدة من عضلاتِ كتفِ هيثم أسكتتهم. أخرج الموسى، كان لون الدم عليه قرمزيًا، مسحه بسروال عيسى الجينز. كان عيسَى الحَمَل الآن ميتًا إلا قليلًا، ولولا أنّنا نعرف أنّ الله رفعه له، للفظ أنفاسه الأخيرة. فعلى كل حال، أصابت الموسى أمعاءه فقط لا غير، لم يتضرر الكبد ولا الأعضاء المهمة. تخدّر الضحية وغرق في اللاوعي. كان يرى ظلال الناس فقط.

- إذن، بكم تبيع سردينتك؟

- الـ.....كـ...يلو..بـز.....

حاول الحمل أن يلفظ الكلمات، خرج الدم على شكلِ كل حرف حاول نطقه.

- ماذا؟

حرّك أصابعه، كانت الأصابع أثقل هذه المرة عليه، كأنّها لم تكن يومًا جزءًا من جسده، كأنه يتعلّم لأول مرة أن يحرّكها، كأنّه يكتشف بأنّه يحمل في يده أصابعًا. تمكّن أخيرًا من أن يصنع علامة النصر بإصبعيْن مذلوليْن.

لم يتوقّف هيثم عند هذا الإذلال، فقد انتشى من الجسد المهشّم أمامه. أدار نظره في المتجمّعين الذين التزموا الصمت أمام حضرةِ العنف الجميل. أخذ هراوته مجددًا وألقى بها إلى السماء من دون هدف يرمي إليه. تحرّك بثقة المنتصرين إلى سيارة الضحية وحمل صندوقًا من السمك، وصار يرمي بسمكة تلو الأخرى لأهل القرية. أمرهم قائلًا: «خذوا السمك... اطبخوه أو اقلوه أو اشووه، لا يهم... منحة عمّكم عضلات». كان الجميع يتلقّون الأسماك خائفين من أن تسقط منهم فتزداد ثورة الشاب. زحف الضحيّة كأنّه سحلية فقدت ذيلها، زحف نحو جلاّده وأمسك بسرواله الجينز، أراد أن يترجّاه بالتوقف، توقف هيثم بالفعل، نظر إلى ضحيته، نزل حتى مستواه حاملًا آخر سمكة في الصندوق، أمسك بشعر ضحيته «وأنت، هل تريد سمكة أيضًا؟». صفعه بالسمكة على خدّه الأيسر، فكان محتّما على عيسى أن يدير له الخد الآخر، لا لأنّه يتبّع مذهبًا متسامحًا، بل لفقدان القدرة على تحريك وجهه، فصفعه هيثم على خدّه الأيمن: «هيّا خذ... كلْها»، أمره، وحشر الحيوان البحري في فمه، كانت السمكة ورّاثة أكبر من أن تُحشَر بأكملها في فم الرجل، إلا أنّ هيثم لم يتوقف عن دفعها كاملة إلى فمه. عندها فقط، تحرّك الحاج إمحمّد قائلًا للثور الهائج:

- هيثم يا ابني، توقّف ورحمة أبيك.

- ماذا يا حاج إمحمّد؟ هل تأمرني بالتوقّف؟ توقف عضلات وحدّق بالحاج.

- لا يا ابني، حاشا وكلّا، ولكن... لكن... الشاب المسكين سيموت.

- لا يزال صغيرًا على الموت يا حاج... على عكسِ الكثيرين ممن يعيشون هنا، قال هيثم.

لكنّ الحاج لم ينبس بكلمة، كل ما فعله هو أن نظر إلى باب بيت العقيد، هناك... كان العقيد بودبّارة واقفًا أمام الباب ينظر إلى ابنه. فهم هيثم أنّ الحاج لم يكن ليتكلم لو لم يرَ أباه. حدق في الحاج متوعِّدًا بالويل. ركل ضحيته وقال له:

- هذه آخر مرة أراك فيها في جهنّم. واختفى هيثم داخلًا البيت.

تحرّك الحاج وثلة من أهل القرية يتفحَّصّون الشاب المرمي أمامهم والذي فسد جسده كما فسدت تجارته، كانت الأبلة سُعاد تبكي من نافذة بيتها، عاد الشباب الأشقياء لإضاعة عمرهم تحت شجرة البونسيان، لخّصت الحاجّة مبروكة تقريرها المتقن ودخلت إلى البيت تطعم ابنها الذي يصارع أوهامه. انفضّ الأطفال ليلعبوا الكرة وحضّرت النساء السمك فصارت رائحة السمك المقلي والمشوي تغلب على رائحة الدم في أزقة القرية. نقل الناس عيسى العربي في سيارته إلى أقرب مستشفى، كان يبعد عن قريتهم مسار ساعة. نفض الحاج إمحمّد يديْه من العراك بينما يدّق قلبه خوفًا من هيثم متناسيا عطشه للشاي، بينما يتابع السيارة

تغادر القرية. ألقى بنظرة أخيرة إلى شيعة التشنكوي وهم يشربون البوخة ويدخنون السجائر ويتضاحكون، ثم توجّه إلى بيت بائع البوخة.

6

مرّ الحاج إمحمّد داخل جنان التشنكوي يتبع خُطى ابنه الوحيد، طائر الشر الذي يدعونه عبدالنّاصر والذي لا يملك أي عُلاقة بصقر القاهرة، إلا كونه وُلِد في الذكرى السنوية لموت الأخير. كان مشهد الجنان فظيعًا، مليئًا بالأشواك التي ترعرعت في غياب السقاية وتحت ضغط قنابل العقيد. هناك في الزاوية كانت تنمو شجرة نوّار العشية، كان الحاج في زمنِ السلم يجلس عند سورها في الشارع فتهديه من النفحات الربانيَة، اليوم كانت الشجرة محروقة تتوزع تحتها بقايا زجاجات مشروب التِبر. في مدخل البيت وزّع التشنكوي خزانات حديد ليصنع منها حواجز تحميه من قصف العدو وأخذ لنفسه مستقرًا في السقيفة خلف الخزانات يجلس إلى طاولة تغزوها أسلحة الحرب. كان التشنكوي جالسًا صحبة زوجته خيرية إلى الطاولة، يمسكُ بهراوة يدكّ فيها مسامير جديدة. رأى أن يجعل الهراوة رقيقة العرض بحيث يمكن للمسمار أن يخرج من الناحية الأخرى. أمّا خيرية فكانت تدخّن سيجارة وتنصتُ إلى «بوعبعاب» يغنّي لدارٍ يسألها عن الغالي الذي فقده. «وين الغالي، نريد ننشدك يا دار»، غنّت خيرية وهي تنظر إلى الحاج يدخل ويقطع عليهما خلوتهما.

- هذا الغالي. أهلًا بالحاج، تفضّل تفضّل.

قال التشنكوي وضحك صحبة زوجته. كانا روحًا واحدة فُصِلت إلى جسديْن، ليمثلا النموذج الأعلى للعشق.

- السلام عليكم. قال الحاج.

زأر في المرأة الجالسة كأنّه يطلب منها أن تغرب عن المشهد، إذ كان التحدّي يكمن في جلسة خيرية. كان التشنكوي ينظر إلى ابنه يأمره بالرحيل بإشارة من عينيه، إذ عليه أن يتابع العدو من برج المراقبة ويعمل على راحة شيعته.

- ماذا تشرب يا حاج؟ شاي أم بوخة؟ ونهض التشنكوي تاركًا مكانه للحاج.

- كبرنا على البوخة يا جمال.

- إذًا فهو الشاي، خيرية... شاي من فضلك، يجب أن ندلّع الحاج.

خضّ الحاج كرمُ التشنكوي المفاجئ، فهو لا يزال يذكر كل تلك المرّات التي رفض التشنكوي فيها أن يقدم لضيوفه القادمين لترطيب الخواطر ولو قطرة ماء واحدة. ولكن قبل أن تأخذك العزّة للإقرار بأنّ التشنكوي يحاول شراء ذمّة الحاج، سأرد على ادعاءات أمثالك بأنّ التشنكوي لم يكن يرى ضرورة لذلك، فهو هنا، وضد كل قوانين الحكاية، أراد فقط أن يقدّم لضيفه شايًا.

- أيرضيك يا حاج، أن يفعل هيثم كل ما فعله في الشاب المسكين؟ أهذه أخلاقنا، أهذا ما أوصانا به ديننا؟

قال التشنكوي بعد دقائق صمت، كان الحاج يتأمل فيها عمله على هراوته. تأمّل الحاج كلمات جمال جيدًا. كاد يقسم أن الرجل الذي يجلس إلى جانبه، ليس هو نفسه جمال التشنكوي الذي خبره وعرفه منذ أن كان فتىً يثير القلاقل في القرية بقذف نوافذ البيوت بالحجارة والهرب. كان الحاج يعرف التشنكوي جيدًا، فهما، على كل حال، يتصلان في النسب بالجد الثاني.

- يا جمال يا ولد سيدي، أنا خبرتُ معاركَ عدّة في القرية، ليس أبعدها عراكك والزرزور عندما كنتَ في عمرِ هيثم أو أكبر قليلًا، كدت تقتله ضربًا لم يضربه إنسانٌ أخاه قبلك. هل تذكر ما فعلتَ به فقط لأنّك شككت أنّه سرق دجاجة منك؟ لقد شوّهت الرجل وحرمته من نعمة إنجاب الأطفال إلى الأبد، بل ونفيته من القرية وطاردته حتى في المدينة، وقد وصلني من ثقاة في المدينة أنّ الرجل لا يزال يهرب من مكانٍ لآخر فقط لأنّه يرى خيالاتٍ لرجالك هناك يلاحقونه من دون توقف، والمشكلة أنّه لم يكن عندك دجاج في الأصل ليسرقه منك. الآن يا جمال... هل تظن أنّ ما فعله هيثم بالشاب المسكين -حدّ وصفك- يستحق أن تقارنه بما فعلته بالزرزور؟

- الزرزور كان نذلًا يا حاج.

- وعراكك مع العقيد يا جمال؟ من النذل بينكما؟ لا أدّعي أن العقيد شيخ جامع، ولكن يا جمال، كل الحكايات التي أسمعها عن سبب نشوب هذا العراك، تخرج فيها أنت النذل. اغفر لي ما أقول، أنت تعرف أنني لا أحب الكذب.

- الرجل خرف، غريب عنّا يا حاج، غريب عن هذا الحي وعن القرية بأكملها، ويريد طردي من بيتي، بيت أبي وبيت جدّي من قبل، هل توافق على ذلك؟ هل توافق أن يخرجك لعينٌ من بيتك؟ ماذا لو أخبرتك يا حاج، بأنّ الرجل عرض عليّ، قبل نشوب العراك، أن أنسحب من التصعيد مقابل أن يسهّل شرائي لبيتك لتكبر تجارتي. لم أرغب في تقليب الأمور بينكما، لأنني ورغم كل ما تراه -وأشار التشنكوي إلى بيته بهراوته- لا أزال طيّب القلب ولا أحب دسّ الجوارب في البوخة.

- تقصد دسّ النخالة في الشاي.

- ماذا؟

- دسّ النخالة في الشاي لا دسّ الجوارب في البوخة.

- لكل منّا مصطلحاته يا حاج إمحمّد.

لقد كان جمال محقًا عندما قال ذلك، فالحاج نفسه، بدّل السم بالنخَالة والعسل بالشاي. لكلٍ سائله المفضّل ولكل مصطلحاته التي تعد انعكاسًا لذلك الشغفَ.

- فعلًا فعلًا، وهذا يذكرني بأول عراك لا أزال أذكره في القرية، كان ذلك عندما كنتُ شابًا غرًا، ربما كنتَ عندها طفلًا صغيرًا لا يفقه أي شيء في العالم.

- وُلِدت واعيًا بكل شيء يا حاج إمحمّد.

- نعم أنت كذلك، ولكن يا جمال، لا أظنّك وعيتَ بذلك العراك، هذا ما أريد قوله. كان العراك بين شخصيتيْن من أشجع ما أنجبت القرية وكان الاثنان قد قاتلا أبناء الروميّة، أحدهما قتَل

عشرة من دون أن تعرفه روما، كان يلبس أردية النساء ويختفي في ظلمة الليل ذاهبًا إلى الجابية ليشرب، كان له قدرة في تقليد النساء حتى إنّه كان يغنّي بصوتٍ أنثويٍ عذب وحزين. كانت هذه طريقته في إغواء الجنود الروم الذين يذرعون القرى ليلًا بحثًا عن أي مشاغب، وبحثًا عن الحسناوات اللائي ليس لهنّ رجل يحميهنّ أو يدّعي حمايتهن. كان صاحبنا يترصّد الجندي في الليل وعندما يعرف أنّه قريب يرتدي الرداء ويجري إلى الجابية ويغنّي هناك، فيأتي الرومي الأحمق ليرى الفتاة التي تجرأت على الخروج وحدها ليلًا لتسقي أهلها من الماء، عندها يقترب من الصوت وعندما يكاد يلتصق جسده بجسد الفتاة التي يتخيّلها، يمسكه صاحبنا ويطعنه حتى الموت ثم يرميه في بئرٍ جنب الجابية، وبعد كل عملية قتل يختفي بضع ليالٍ حتى ذاع صيته عند أولاد الروميّة وأصبحوا يسمونه «شبح المرأة المنتقمة»، كانوا يظنونه امرأة تقتل الروم لأنّ أحدهم زمن المقاومة اغتصبها وألقى بها في البئر فتحوّلت إلى غولة أو ساحرة منتقمة.

- حسَن الرومي.

- نعم حسَن الرومي. لا أظنّك عاصرته.

- سمعتُ عنه من أمّي. لكن مَن هو الشخص الآخر في ذلك العراك؟

- الآخر كان قبضايًا، شابًا قويًا يخافه كل من في القرية، لكنّه كان غبيًا أيضًا، أعني كان مثلًا يسرق أو يضرب روميًا في بَنغازي عند أخواله ومن ثمّ يتبجح بذلك وهو يذرع الطرقات ثملًا في

القرية. وقد عرفت روما بأمره، فأرسلت الشرطة ليلقّنوه درسًا، فيلقون به في الزنزانة وهناك يفعلون به الفحشاء، يلبسونه رداء امرأة ويغتصبونه. كانت أيامًا سودًا. وعندما يهرب من السجن بطريقة ما، يعود إلى القرية متخفيًا في الليل. وقد نفته روما إلى باليرمو ليأكل من التبن مع أبقارهم. وهكذا ظلّ الأمر حتى طردنا أولاد الروميّة ونلنا الاستقلال. وفي العهد البائد غيّر عادته إلى سرقة وضرب عناصر الشرطة. المهم... في أحد تلك الأيام، كان حسَن الرومي يمثّل ما كان يفعله بالروم صحبة رجال مرتديًا رداءً استعاره من أمّه بينما يضحك الرجال المتحلقون حوله. هناك رآه القبضاي فظنّه يستهزئ به، فاندفع ناحيته. استمر العراك بينهما شهرًا كاملًا، كل ما رأى أحدهما الآخر تقاتلا حتى يفكّهما الرجال، ولكن بعد شهر تغيّرت الأمور وتطورّت الحوادث، فصار الرجال يحتشدون ويتمترسون دعمًا لهذا أو ذاك، فنشب العراك الكبير الذي حرم القرية من المؤونة شهرًا مات فيه أطفال من الجوع. هل تعرف من كان ذلك الرجل الذي قاتله حسن الرومي؟

- أعرفه. لقد كان ذلك الرجل...

- ذلك الرجل كان أنا. كنتُ غشيمًا، ولا أزال كذلك حتى يومنا هذا. لكن... ما أردتُ قوله، انظر كيف تحوّل سوء تفاهم إلى عراك بين رجليْن خدما القرية، كل بطريقته، وانظر الآن... أنا أترحّم على حسن الرومي كل يوم. رغم أنّ أحد الأطفال الذين ماتوا جوعًا كان ابني الوحيد. موته لم يجعلني أتوقف عن ذلك العراك مع حسن، بل زاد من شدّة القتال بيننا.

«الشاي يا حاج إمحمّد»، قطع صوت خيرية الحنون حكاية الحاج. بلع ريقه وتلهّف لتذوق شرابه المفضّل.

- هذا القتال مختلف يا حاج إمحمّد.

- سنرى[1].

(1) لا شيء، ولكن مضت صفحات لم أكتب في الهامش.

7

خرج الحاج إمحمّد من منزل التشنكوي، إذ ليس من المنطقي أن يبقى هناك، فجمال وإن كان بائع خمر وقوّاد كما يدّعي أهل القرية، هو في النهاية لديه عائلة ليعيلها، ولديه عراك ليخوضه ولن يكون وجود الحاج داخل البيت منطقيًا في ما تبقى من حكايتنا، خصوصا بعد أن أيقن أنه سيخرج نافضًا يديْه بلا كيس شاي ومن دون أن يفلح في إقناع جمال في العدول عن مواصلة العراك. وربما كانت رغبتي بالحوار بينهما، فقط لأظهر لقصار النظر أمثالك، والذين يسهل عليهم الحكم على الناس، بأنّ هناك ما هو أعمق في شخصية كليْهما.

إذًا، خرج الحاج، بحث في آثار المعركة التي خلّفها هيثم، فأثارت شجرة التوت انتباهه، وقف تحت ظلّها يتأمل آخر ما تبقّى من ثمارها، كانت الأرض تحتها تغزوها الثمار الفاسدة. لأول مرة، ينتبه الحاج أنّ لا أحد من أطفال القرية قطف ولو ثمرة واحدة هذا الصيف من الشجرة، هذه سابقة في تاريخ القرية وتاريخ هذه الشجرة منذ أن كانت شتلةً يسقيها خدم السلطان ليخرجوا منها القز.

ارتعد الحاج.

- لعنة الله على الظلّام. قال، ودخل بيته.

في أثناء دخوله البيت وقبل أن يغلق الباب، قفز قِطان تحت قدميه واندفعا إلى الشارع، «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، قال الحاج وأغلق بابه. أما القِطّان فظلا يجريان، أحدهما يراوغ الآخر في قيلولة يهدأ فيها الشارع والحي والقرية ولا يخرق الصمت فيها إلا عراك القطط، وتغريد العصافير، ونقيق الدجاج، ونهيق الحمير، وغثاء الأغنام. وفي زاوية من زوايا القرية التي نسيَتها أقدام الناس، حاصر المُطَارِدُ المُطَارَدَ. انتصب واحدهما بمواجهة الآخر وظلّا واقفَيْن؛ إلى -ولله الحمد- أن لقنتهما حجارة جاءت من طفل سوءٍ هاربٍ من أهله، درسًا لا ينسيانه، في ألّا يتدخلا في عراك البشر.

كان الطفل الذي رمى القطين الأخرقَيْن بالحجارة، أصغر أبناء العقيد، والذي يسمّونه «العقيد الصغير».

8

قد يأخذك الظنّ بأنّني سأحكي ما حدث للفتى الصغير بعد أن ضرب القطّين بالحجارة وأصاب بطن أحدهما، ولكن أودّ أن أخيّب ظنّك لأقول لك بأنّه لم يحدث له شيء، رغم أنني مكرتُ له بأن يلتقي بابن التشنكوي الذي ظلّ، كالجندِي المثالي، يراقب الحي. ولا بد أنّه رآه، ولا بد أنّه تذكر بأنّه الفتى الصغير الذي يرسله إخوته في هذه الساعة بالضبط لرمي القمامة أمام بيت جمال، ولا بد أيضًا، أن يكون ابن التشنكوي قد ترصّده وانتظر المناسبة المُثلى ليمسك بالفتى ويضربه ويرسله باكيًا إلى إخوته وأبيه، ولكن هذا لم يحصل، فقد كان ابن التشنكوي يراقب نافذة مطبخ الأبلة سُعاد التي تتركها مفتوحة لتخرج رائحة البصل والثوم وهي تعدّ الغداء. هذا ما حدث بالضبط، ولهذا نجا العقيد الصغير من «طريحة» تنتظره فيما يتلو من قصة العراك.

مضى أسبوع على حادثة انفجار أنبوبة الغاز التي أصابت نخلة الحاج إمحمّد في مقتل. كان أسبوعًا هادئًا نسبيًا، وهو ما لا يمكننا نكرانه بالطبع، إلا أنّ كلمة «نسبي» تشي بأنّ هناك حوادث قد حدثت بالفعل. فمثلًا، اكتشف الحاج إمحمّد بأنّ أنبوبة الغاز التي جاءت من بيتِ التشنكوي لتحطم ثكنة العقيد، كانت أنبوبته، وقد سرقها أحد المتشيعين لجمال ليلًا وهو نائم؛ أشعل هذا غضب

الحاج الذي لم يشتعل غازه عندما أراد أن يطبخ لنفسه المعكرونة -إذ إنّه، وهذا مشهود له منذ أيام عربدته الأولى، طبّاخ ماهر يُشار له بالبنان- ولكنه لم يكلّم أحدًا في الأمر، ولم يشتك للعقيد؛ لأنّه أصبح يحملُ ضغينة ما تجاه الرجل، إذا صحّ كلام جمال فيه. زوج أبلة سعاد عاد من الصحراء، وقد ضربها ضربا مبرحا عندما أعدّت له غداءً بلا ملح في أحدِ الأيام. لا أحد يهتم بوجود الرجل في القرية، ولهذا، فلن نحجز له مكانًا في هذا العراك غير ذكره هنا، فقد غادر الرجل بعد نهاية الأسبوع بعد أن طارح زوجته مرّات عدّة ليخرج الذهب الأسود، فنبيعه لشركات الاستعمار الرومّي الذي كان غاشمًا ولم يعد كذلك، فقد صار الاستعمار رأسماليًا لا فاشيًا، وهذا ما سيبرهنه تقبيل قيصر روما سلفيو برلسكوني ليد القائد بعد عشر سنوات من تاريخ العراك، في مشهدٍ مافيوزيٍّ سيحظى باهتمام الجماهير. كادت تجارة جمال تبور ولكن ليس للأمر علاقة بالعراك بل بسبب عطلٍ لم يكتشفه مبكرًا في إحدى منظوماتِ صناعةِ البوخة. الشباب، المشاكسون، ظلّوا كعادتهم، يلتقون كل يوم عند الضحى ليتحدثوا في أمر العراك، وقد حكى لهم الحكواتي بأنّ العصفورة أخبرته بأنّ القطّة حدّثتها بأنّ قطة أخرى قالت لها إنّها سمعت من قطةٍ ثالثةٍ تتلصّص على مطابخ الناس، أنّ أهل بيت العقيد كانوا، ولمدة أسبوع، يتمتّعون بغداءٍ فاخرٍ من السمك، متنوعةٌ أشكاله وأسماءه، مما لا يدع مجالًا للشكّ في أخبار الحيوانات التي تُعدّ من الثقات، فهي لا تملك في جعبتها مكرًا ولا عقلا لتكذب على الناس. وقال الحكواتي،

بالطبع، بأنّ بطلنا، بطل هذه الحكاية الذي قد لا يظهر إلا في نهايتها، يعمل على تحشيد أبناء قريته، ليردّ الثأر ثأريْن لأبناء جهنّم العزيزة؛ وهذا ما يعَدّ تدخلًا خارجيًا في شؤوننا الخاصة، ومما لا نسمح به، إذ يجب علينا حماية أوطاننا من الأعداء مهما كنّا نكره بعضنا البعض ومهما كنّا نكرهها هي أيضًا. هذا كان حال شباب القرية في ذلك الأسبوع الذي مضى، أما الحاجّة مبروكة، فظلت هي الوحيدة، المخلصة للقضية، تشتري النّفّة وتهرّب السجائر لابنها التافه، الجبان، الحقير، وتنقل أخبار القرية للعقيد. غير ذلك، لم يحدث في القرية ما يثير الاهتمام عدا الحرائق المتكرّرة والمشاجرات الكلامية بين الطرفين والترصد ورمي القمامة ومحاولات حشد الأنصار وتمزيقِ بطنِ أحد المتفرّجين الهامشيين على العراك عن طريق الخطأ، وهذا ما يحدث في كل حرب وعراك في هذا العالم السخيف.

هل نحتاج الآن، بعد هذا الملخّص لأهم حوادث الأسبوع، أن نُدخِل شخصية أخرى في هذه الحكاية؟ ربما حان الوقت لذلك، ولهذا فقد كان أمين الجمعية، وبحسب ما اتفق عليه شعب القرية، أمين شعبية جهنّم، السيد محمود السمين. كان يجلس في الجمعيّة يدخّن سجائر الرياضي ويصبّ لنفسه شايًا بالنعناع، عندما دخل عليه الحاج إمحمّد وفي عقله شيء واحد فقط «الشاي»، إذ ومن ضمن ما حدث في الأسبوع البائد، أنّ الحاج لم يشرب ولو كأسًا واحدة، وبدل أن يأخذ الأمر على أنّه رحلة علاجية من إدمانه، اشتعل غضبًا واستحضر مشهد شربه للشاي عند جمال مرّاتٍ عديدة.

- الحاج إمحمّد، زارتنا البركة.

قال السيد محمود، وهو لم يكن سيدًا، إذ إنّ القائد أخبرنا بأنّنا في عصر لا سيد فيه ولا مسود، ولكنّه أحب دائمًا أن يناديه الجميع هكذا. فهو، ولفداحة الأمر ولقصور الدولة، كان الوحيد من أبناء القرية من أكمل تعليمه وتخرّج من المعهد العالي للمهن الشاملة، حيث تدرّب على مهنة الفلاحة؛ وقبل أن تبدأ في إصدار الأحكام وتتهمني باحتقار السيد محمود، وربط انتهازيته بتبوّئه لمنصبين لا يملك شهادة ولا خبرة فيهما، والتذكير بأصوله الفلاحية، مما قد يعدّ عداءً غريبًا رأسماليًا مني تجاه الطبقات المسحوقة، أخبرك، وأخبر كل من يحملون عقلك هذا، أنّني لست إلا ساعي بريد، أنقل الحقيقة فقط، والحقيقة كانت أنّ السيد محمود تخرّج فلاحًا وعمل أمينًا للجمعية ولشعبية جهنّم، فأين المشكلة؟ إنها فيك.

وبعد أن عطّلت، بذكائك الخارق، السرد، نعود إلى الحكاية. فقد قال السيد محمود كلمته بعد أن نهض يحمل كرشه ويقف خلف مصطبة الكاصّة في الجمعية، تلك المصطبة التي تفصل بين العاملين وبقية الشعب، لتكون حاجزًا بين الدهماء وثروتهم التي يتبجّح بها أمين المؤتمر الشعبي العام لأنحاء الجماهيرية. لم يطفئ السيد محمود سيجارته احترامًا لسنّ الحاج إمحمّد ولا لفاقته، كما لم يخبّئ كأس الشاي المخلوط بالنعناع، بل وضع كأس الشاي على المصطبة، تلعثم الحاج وازداد جنونه ليتركه في صمتٍ مطبقٍ.

- كيف نَخدِمك يا حاج؟ وصل بالأمس صندوقان من بسكويت زينة ونحّول، ربما تريد أن تخبّئ البعض للأحفاد.

قال السيد محمود بعد أن شرب من كأسه، وأخرج نحنحة تفيد انتعاشه بما ارتشف.

- أنا... أنا أريد شايًا، هذا كل ما أريده.

قال الحاج، وكان في نبرته، كما يتضح من دون الحاجة للإيضاح، ضعف وإقرار بذلك الضعف.

- بالطبع يا حاج، لحظة فقط.

اتجه السيد محمود إلى المطبخ في الداخل، ليعود بكأسٍ زجاجية.

- بالنعناع أم بغيره؟.

سأل السيّد محمود الحاجَ وهو يقف على برّاده الذي تركه على نارِ الفحم، يكركر كما يشاء.

- بلا نعناع.

قال الحاج. كان منهارًا، فاتكأ على المصطبة الخشبية وظل ينتظر عطاء أمين الجمعية. ورغم أنّه جاء عازمًا على أخذ حصّته من الشاي الذي جاء به القائد من سيرلانكا، إلا أنّ حاجته لتذوق طعم السائل الأسود تركته بلا دفاع؛ ففضّل، على الأقل، أن يشرب شايه بلا نعناع، ليضيف سجعًا على الحكاية.

- أخبرني يا حاج ما الذي جاء بك إلى الجمعية؟ لم نعد نراك.

- إنه هذا العراك.

قال الحاج وقد تناسى كل شيء وهو يتلذذ بتغلغل الشاي في

عروقه، ليجري فيها مجرى الدم.

- هل ما زلتم تتحاربون؟

سأل السيد محمود. ويتضح من كلامه، أنّه إما كان جاهلًا بحقيقة ما يحدث في قريته التي يتولّى أمرها، أو، وهذا أكثر منطقية، أراد أن يلبس ثوب القائد ليصبح حكيم زمانه في السخرية. تأمّل الحاج كلمات السيد محمود. أراد أن يلكمه، ولكنّه تذكّر أنّه حلف، منذ موت ابنه في عراكه مع حسن الرومي، بأن لا يمدّ يده إلى إنسيٍ، وإن كان يستحق ذلك.

- نعم، سرقوا لي أنبوبة الغاز وألقوا بها لتنفجر في بيت العقيد.

- وهل قدّمت شكوى إلى مركز الشرطة؟ يجب أن تقدم شكوى، سرقت كلاب ضالة الجمعية منذ أيام، السفلة لم يسرقوا إلا الشاي هل تصدّق؟ كنتُ قد تركتُ لك ولكل بيت في القرية عبوّة شاي فاخر يا حاج. وقد قدمت شكوى ولا أزال في انتظار نتيجة التحقيق، بل إنّ لدي موعد مع الأفندي سالم بعد نصف ساعة، وددتُ أن تأتي معي.

- الأفندي سالم لا ينصت لأحد، كما هي الحكومة.

قال الحاج، كاظمًا غيظه من ملاحظة أمين الجمعية عن الشاي.

- نعم نعم، رفعت تقريرًا بالعراك إلى مؤتمر الشعب العام في المناطق السبع، ولكنّهم لا يهتمون بنا.

- لا أحد يهتم بجهنّم.

- أنا أهتم بجهنم، بالطبع جهنمنا نحن، لا جهنم تلك التي أعدّها الله للكفّار.

- لعنهم الله.

قال الحاج. أنهى كأسه، وقد كان الأمين كريمًا بما يكفي ليصبّ له الشاي مرة أخرى.

- إنني أفكّر، منذ مدة، في تغيير اسم الشعبية، ما رأيك يا حاج؟ لا يروقني اسم جهنّم، أفضّل أن نسميها العافية.

- عافية على جلود الكفّار.

- هاهاهاها، دائمًا تضحكني يا حاج، ولكن أقصد عافية، كما يقولها الشوام.

- جهنّم اسم مناسب للقرية، لم نفكر يومًا بأنّ الاسم سيئ.

- ولكن الاسم لا يمت للصوابية السياسية بصِلة يا حاج.

- ماذا؟ ما هي هذه الصوابية السياسية؟ أنت تعرف أنني لا أحب الحديث في السياسة.

- نعم، ما هي؟ لا أعرف. وكأنّ أحدهم وضعها على لساني.

- تجري على لسان المرء، أحيانًا، أمورٌ غامضة، تتضح في زمنٍ آخر.

نعم، كان كلام الحاج صحيحًا، فقد وضعتُ الجملة على لسان السيد محمود، حتى تتعظ، وتُدرِك أنّنا نعيش في عصر جديد، يجب أن نصحو فيه -إن صحّ التعبير-. ولكن دعنا من هذا الأمر، ولنرجع إلى قصتنا، خلص الحوار بين السيد محمود والحاج إلى الحديث في واقعة ضرب هيثم عضلات لبطلنا عيسى العربي، والذي لا نعرف ما جرى له حتى الآن، وربما يكون قد مات. كان السيد محمود هو من افتتح الحديث بالموضوع، وأوضح للحاج

بأنّ العقيد قد تجاوز كل الحدود، إذ لم يعد العراك سلميًا؛ أراد الحاج أن يسأل عن الزمن الذي كان فيه العراك سلميًا لكنّ السيد محمود سدّ فمه بكأسِ شاي أخرى، حتى إنّ الحاج أصبح مخدَّرًا وطلب كرسيًا يجلس عليه. كان رأي السيد محمود أنّ حلّ العراك سلميًا يعَدّ الآن من سابع المستحيلات بعد الغول والعنقاء والخل الوفي والوحدة العربية وعودة الخلافة الإسلامية الراشدة وموت القائد، فهو حي في قلوبنا دائمًا. هذا كلام السيد محمود، لا كلامي أنا. المشكلة، كما قال السيد محمود، هي في توازن القوى.

- وهل تعرف ماذا يعني توازن القوى يا حاج؟

- لم أدرس سوى في الكُتّاب. في أيام الروميّة لم ندخل المدرسة لأنّنا لم نودّ أن نتحول إلى روميين، وفي أيام سيدي إدريس، أصبحتُ أعمل في مصنع صابون في المدينة لتعيش زوجتي على حسابي، رحمها الله.

- رحمها الله. يا حاج. توازن القوى، يعني أنّ أخانا جمال والعقيد بودبّارة خصمان بنفس القوة، هما يعرفان ذلك ولهذا يعملان على تحشيد الأنصار لهزيمة العدو. إذًا كيف نتخلّص من هذا التوازن؟

- لا أعرف؟ يجب أن تتدخل الحكومة وتنهي هذه المهزلة؟

- لا، الحكومة ليست متفرغة لحل مشاكلنا التافهة، فهي لديها مشاكل أهم، كتوصيل النهر الصناعي العظيم إلى كل شعبيات الجماهيرية، والتصدّي للقوى الاستعمارية والإمبريالية العالمية المتجسّدة في الممثل ريغان.

- أظنّ أنّ ريغان لم يعد رئيسا للأمريكان.

- يريدونك أن تؤمن بذلك. ريغان ممثل تافه، وربما يكون الأمر كله تمثيلية. المهم، الحكومة منشغلة، وحتى إن لم تكن منشغلة، ألم يصلك كلام الأخ القائد: الشعب يحكم نفسه بنفسه؟

- وصلني.

- إذًا، علينا نحن أن نعمل على نصر أحد الطرفيْن، الآن... إن أردت المنطق، فأنا أميل إلى نصر العقيد، ولكن إن أردت كلام القلب، علينا أن ننصر أخانا جمال. هو ابن القرية في النهاية، وما أنا إلا من غُزيَّة، إن غوت غويتُ...

- أنا جئتك فقط لأنني أريد شايًا.

هكذا أنهى الحاج علينا متعة استكشاف فلسفة الحياة عند أمين الجمعية وأمين شعبية جهنّم، السيد محمود السمين. على الحاج من الله ما يستحق، وما يستحقه هو شاي، وقد خرج نافضًا يديْه من وعد أمين الشعبية بأن يكون أول من يستلم الشاي من أهل القرية عند وصوله. ترك أمين الجمعية للاستماع إلى الراديو، فقد كان الأخ قائد الثورة يحرّض الجماهير للاستعداد للقتال ضد العدو الإمبريالي وفك الحصار العالمي. خرج من الجمعية ليصطدم مرة أخرى بالحاجة مبروكة عند صورة للأخ القائد لم تصلها نيران العراك. توقف ليتحدث مع الحاجة.

- ما في شاي بالجمعية يا حاجّة.

ضحكت الحاجّة وقالت بنبرة هازئة:

- من أخبرك بذلك يا حاج؟

- أمين الجمعية.

- وهل تصدّق كل ما يخبرك به أمين الجمعية يا حاج إمحمّد؟

قالت الحاجّة، وتركت الحاج إمحمّد واقفا ينظر إليها وهي تدخل إلى الجمعية لتأخذ حقّها من الثروة.

9

إذًا، أنت تخمّن الآن ما الذي سأخبرك به عن سيرة العراك؟ وهذا أمر جيّد، هذا يعني أنّ لديك عقلًا يفكّر ولو قليلًا، وأنا الذي كنت أظنّ أنّ ما هو محشور داخل جمجمتك لا يشغله إلا الأكل والجنس والتفوّه بالحماقات. ولأنّك أثبتَّ عكس ما ظننت، سأكافئك بمزيد من الأخبار عن العراك. سأخبرك أنّ العراك اشتعل مجددًا في القرية، وذلك عندما عادت الحاجّة مبروكة من الجمعية محمّلة بالشاي الذي أخرجته من يدِ أمين الجمعية بعد أن مدّت يدها إلى عنقه، فخرج من مؤخرته كدجاجة تبيض شايًا.

هناك، في مكان راحتها المعتاد، جلست الحاجّة تحت شجرة الزيتون تتطلع إلى غنيمتها وتستنشق النّفّة. وهناك أيضًا، سقطت حجارة تحت أقدامها، لتلعن فرج المرأة التي أنجبت من رماها. ولكن قبل أن تكمل كلماتها شهدت بأمّ عينيْها -وهذا تعبير غريب إن أردت رأيي- كيف تجرّأ ابن العقيد، الفتى الصغير الذي لم نفلح حتى الآن في إيجاد اسم له، على رمي حجارته في رأس رجل من رجال التشنكوي. كان الرجل ضخمًا قمحيّ البشرة، له شنب يقف صقر قريش عليه من دون أن يتأرجح. يشبه في صورته، والعياذ بالله أن يُشبّه الثرى بالثريا، العقيد معمّر بومنيار، الأخ القائد أمين القومية العربية وإمام المسلمين والكفّار والبشر أجمعين.

ولا يغرّنك شبَه الرجل بالأخ القائد، فكلنا نشبهه، وهذا ليس بيت القصيد. بيت القصيد، أنّ الفتى الصغير، وفي خضّم الأحجار التي كادت أن تصيب إحداها الحاجّة مبروكة، تمكن أن يعور عين الرجل وهو يدخل إلى بيت إمامه. صرخ شبيه القائد صرخة أيقظت الحاج عَلي جهنّم، مؤسس القرية من نومه الأبدي، وجعلت الخلائق من بشرٍ وجانٍ وحيوانٍ ونباتٍ تتجه بأنظارها إلى مكان الحدث. لملمت الحاجّة مبروكة حاجياتها وركضت كأنّها ابنة عشرين عامًا إلى بيتها لتحتمي بغرسِها وقِطَطِها وخيال ابنها التافه. خرج الحاج إمحمّد من بيته ليتفقدّ الأمر وقد نسي أن يرتدي سرواله، ولكن من ستر الله، كان يرتدي قميصه الذي هو قميص أجدادنا الذي يحفظ العورَة. التمّ الناس كما فعلوا في عراك هيثم وبطلنا عيسى العربي. ردًا على ما تلقاه، أخذ الرجل حجرًا وقذفه باتجاه الفتى فأصابه في قدمه إصابةً لا نعرف إن قصدها أو جاءت مصادفةً. لكن الفتى، صنيع فعلته، علا بكاؤه بينما ينزّ الدم من قدمه اليمنى، مكان الكعبِ بالضبط. طبعًا لا يمكن لهكذا حادثة أن تمرّ مرور الكرام، فقد اجتمع الفريقان وظلّا يتقاتلان حتى راح ضحيّة ذلك نافذة بيتِ الأبلة سعاد ورأس قطّة وجذع من جذوع شجرة التوت وسيّارة رجلٍ من المدينة كان يعود مريضًا داخل القرية. كما راح ضحية ذلكَ حسّ الدُعابة في العالم، ولو لدقائق، إذ إنّه عند أذان صلاة الظهر، توقف المتحاربون عن التحارب. تجمدّ الفريقان كما تجمّدت وجوه المتفرجين والمصلحين الذين حاولوا مرارًا فضّ العراك، كما تجمّد بكاء الفتى وتجمّد الدم

في كعبه. وعند انتهاء الأذان، وبعد الصلاة على النبي، والدعوة الصالحة من القلب، عاد الفريقان للاحتراب.

لقد ظلّ الفريقان على هذا الوضع حتّى كلَّ جهد الرجال من توجيه اللكمات وشدّ الخناق، وانتقل العراك من الشارع إلى التقاذف بزجاجات المشروب والكراسي والأشواك والقمامة التي راحت تتطاير بين المعسكرين. يتوقف الفريقان عند صوتِ الحق الربّاني في أذان صلاة العصر ومن ثم المغرب وبعدها العشاء، ومن ثم يعودان إلى العراك، حتى جاء منتصف الليل، فتوقف الجمعان حتى لا يزعجا الجيران في نومهم.

الصباح التالي كان هادئًا، كما يجب أن يكون. نهضت الشمس من سباتها وتثاءبت لتظهر الخراب الذي حلّ ببيوت الجيران، إذ بان أنّ بيت الحاج إمحمّد قد راح هو أيضًا، ضحية للعراك، والحمد لله أنّ الحاج لم ينم تلك الليلة في بيته، فقد سهِر عند الإخوان المدنِي يشرب الشاي الذي جاء به لهم صديقٌ من بنغازي جاء به له قريبٌ من طبرق، والذي جاء به إليه هو أيضًا صديقٌ مصريٌ من قاهرة المعزّ لدين الله الفاطمي. راح الحاج يشرب الشاي ويلعب الكارطة متناسيًا أمر بيته حتى ساعة العِشاء، فحلف عليه الإخوان المدني بقبر أبيهم والأسمَر الفيتوري أن ينام عندهم، ففعل؛ ليستيقظ عند طلوع الشمس يتفقد بيته ويجده على حالته، متفحّمًا، لم يحتمل الحاج حالة الفقدان، فخرّ راكعًا يبكي كالنساء ملكا لم يدافع عنه كالرجال، واضطُرَّ الحاج بعد ذلك أن

يصبح أول نازحٍ في القرية، استضافه الله في بيته، شرط ألّا يهرب، كما يفعل عادةً من الصلاة في الجامع.

ولأنّك هنا، قد تسأل نفسك، أين كان رجال الدين من العراك؟ فسأجيب. كان شيخ القرية، الشيخ خرّيج الأزهر الشريف عبد السلام النّوري، يتحدث في كل صلاة جمعة عن إماطة الأذى عن الطريق وحجاب المرأة وخبث الحياة الدنيا ومناقب الكلمة الطيبة، وهو يُعذَرُ في ذلك، فالرجل موظف حكومي ولديه أطفال يعيلهم، ماذا كنت تنتظر منه أيّها الأفّاق؟ أن يرمي بنفسه للنار بينما تشاهده مستمتعًا بعذابه؟ هل ستنقذه، أنت وأمثالك، من عذاب القبر، عندما يدفنه العقيد أو التشنكوي، حيًا وهو يبحث عن نَفَسٍ تحت التراب؟ لا؟ إذًا اصمت.

في ذاك اليوم أيضًا التقى المشاكسون في اجتماعهم العادي عند شجرة البونسيان. اتكأ الظريف، والذي سنسمّيه الآن علي المدني، على جذع الشجرة، بحث في المكان عن أي من كبار عائلته، وأشعل سيجارة واضعًا إيّاها بين إصبعيه السبابة والإبهام، تحرّزًا، ومن ثم وجّه بنظره إلى الحكواتي، والذي تبيّن لنا الآن أيضا، أنّه ابن عمّه مسعود المدني مسعود. نفخ دخان سيجارته في وجه ابن العم وألقى على مسمعه السؤال الذي ظلّ يخبّئه حرجًا، فقال:

- يا ولد سيدي، ما هو التصعيد؟

- عجيب، ألم تعطي انتباهًا في حصّة المجتمع الجماهيري؟ تفوّه المثقف، بائع الجرائد السخيف بما تفوهه.

- عندما كنتَ أنتَ تمصّ حليب أمّك بينما يلقّنك القائد كلماته، كنتُ أنا أحمل عائلة كاملة على ظهري. قال الظريف وقد نخرت الإهانة كرامته.

- آسف، لم أقصد الإهانة.

- بل قصدتها.

- لم أقصدها.

- بل قصدتها.

- لم أقصد.

- وربّ الكعبة إلا قصدتها.

- صلّوا على النبي يا جماعة.

قال الحكواتي مسعود المدني مسعود، فصلّى المشاكسون على النبي. وأخذ سيجارة ابن عمّه من يده وركز نظره في المتابعين قائلًا:

- إنّ التصعيد يا غالي هو آخر ما وصل إليه الناس من نظريات في انتخاب القائد، حيث بدلا من أن يدلي الناس بأصواتهم في أوراقٍ ينتخبون فيها رجلًا للقيادة، قد تُزوَّر وقد يطالها التدليس والإقصاء، يجتمع الناس في ظهيرة يوم حارٍّ تحت شمسِ الجماهيرية الشديدة في إحدى الساحات العامة، وعندما ينادي المنادي باسم المتقدّم للقيادة يرفع الناس أياديهم وسواطيرهم وصفّاراتهم ويصيحون باسمه، ويُعمل بذلك أيضًا عندما ينادى بأسماء المنافسين. وعندها، يصبح صاحب أكبر صيحة وأكثر عدد أيدٍ وأشدّ جندٍ يتبعونه في الساحة، هو الرجل المنتَخَب.

ويسمّون ذلك الديمقراطية المباشرة. الديمقراطية، أي الدهماء على الكراسي.

- الله على العبقرية.

نعم، فعلتُ ذلك حتى تفهم وتتعظ وتعرف الإنجازات التي وصلنا إليها في جماهيرية القائد، وحتى لا يأتي أحدٌ إليَّ بعد ذلك ويخبرني أنّ هذه الحكاية مغرقة في المحليّة وما إلى ذلك من الهراء، وليتضّح للكَسالى مقدار العالمية التي وصلنا إليها بعد أن كنتم تعيشون تحت حكم الديمقراطية المزيَّفة والرجعية والتخلّف والتبعية والإمبريالية، ولا تسألني عن معنى ما قلت، فأنا أيضًا لا أعرفه. هنا، وبكل جدّية، وقف علي، الذي قلنا إنّه كان الظريف في المجتمع، وسأل ابن عمّه سؤالًا جديدًا:

- إذًا، ما هي الأحزاب؟

- أستغفر الله.

قال المتأفّف دائمًا، والذي اتضح أيضًا، أنّه كان ابن الشيخ عبد السلام.

- من أين سمعتَ بذلك يا ولد سيدي؟ ردّ الحكواتي مسعود.

- من القائد، سمعته بالأمس، في خطاب لشعبية وادي الجنون.

- أعوذ بالله من سخط الله. قال المتأفّف.

- نعم سمعتُ الخطاب، وأعطيه سبعة على عشرة، فلم يكن القائد فيه حماسيًا بما يكفي. قال المثقف.

- من أنتَ لتقيّم القائد؟

قال الظريف ولكن قبل أن تشتدّ الحرب الكلامية بينه وبين المثقف، تدخّل الحكواتي ليشرح له معنى الأحزاب قائلًا:

- الأحزاب يا ولد سيدي هي ما نراه اليوم في قريتنا من انقسام في الرأي، فالعقيد لديه حزبه والتشنكوي لديه حزبه الآخر، أحدهما يظنّ نفسه فيلًا والآخر يظنّ نفسه حمارًا، وإن أردت رأيي في الأمر، فهو من رأي القائد، من تحزّب خان.

- إذًا، وهذا سؤالي الأخير، أعدك، كيف هو طعم المرأة؟

- هذا الأمر يحتاج إلى حكاية، وليست أيّ حكاية.

وقبل أن يبدأ الحكواتي حكايته، نهض المتأفف واستأذن الجمع. ظنّوا أنّه لم يرغب في حكاية يمكن أن تتخللها مشاهد جنسيّة، ولهذا إذا لم ترغب مثله في ذلك، فأنصحك، نصيحة العارف، أن تترك الحكاية وتريحنا من وجع الرأس.

- هذا يا جماعة، حكَت لي العصفورة ليلة أمس أنّ عيشة ابنة التشنكوي أوقعَت الترجمان في حبّها، وذلك بأنّها كانت قبل بداية التصعيد وتحزّب الفريقيْن لقائد يقود كل فريق، كانت تجلس وبين يديها كتاب تقرأه عند حائط النوّار في بيتهم، عندما طرق التُرجمان الباب على أبيها ليشتري البوخة للعقيد. كان ذلك في العشيّة، إذ إنّ رائحة النوّار أغرَت التُرجمان على تخطّي عتبة الباب بعد أن خرج إليه التشنكوي يأخذ طلبه ويعود إلى معملِه ليجهز البوخة للزبون. وعندما أدار التُرجمان ناظريْه بحثًا عن شجرة النوّار وجَد عيشة متكئة على جذعها تحمل كتابها بينما تنّز الأنوثة من قفطانها

الأبيض المنمّش بأزهارِ الأحلام الوردية، فتعلّق نظر الترجمان بوجهها ومن ثمّ بثدييها حتى شعر بملمس يديْها على صفحات الكتاب، وتمنّى لو كان كتابًا تحمله، وحدث أن خرجت من نافذة مطبخ أمّها أغنيّة تتغزل بزهرة الياسمين لنوري كمال، فاتفّقت الأغنية مع المشهد، وظلّ التُرجمان في مكانه ذلك حتى جاءه صوت التشنكوي من المعمل فعاد إلى صوابه، وأنقذ نفسه من شراك الرجل الذي كان سيقتله ويقتل ابنته، فقط لأنّه تجرأ على رؤيتها وهي تجرأت على الجلوس في العشية لتقرأ كتابها، وربما يقتل راديو المطبخ لتجروئه على بث أغنيات الغزل والحب.

– وما علاقة ذلك بطعم المرأة يا ولد سيدي؟

– اصمت، دع الرجل يحكي. قال المثقّف مسحورًا ببيان الحكواتي.

وعندما كاد الظريف أن يضرب المثقّف ليبدأ عراك صغير داخل عراكنا، مما قد يزيد تعقيد الحكاية، وضع مسعود يده على يد ابن عمه وقال:

– آتيك بالكلام يا ولد سيدي. له علاقة بالديمقراطية والأحزاب والمرأة. الثلاثة. لقد اتخذ التُرجمان من سطح بيتهم محرابًا يصلّي فيه لجمال عيشة. يتجّه إلى السطح بعد استلقَاء العقيد أمام شاشة تلفازه ليشاهد خطابات القائد على قناة الجماهيرية، ويشعل سجائره هناك حاملًا جهاز الراديو صحبته لينصت إلى الموسيقى ويتابع أضواء بيت التشنكوي من نُقبةٍ في السُور.

– لحظة فقط يا ولد سيدي، تقول صلّى لها، هل هذا شرك؟

- لا يا ابن العم، إنّه مجاز.

- مجاز؟

- أقصد أدب، يعني أنّ الكلام لا يؤخذ بمعناه الحرفي، هل فهمت؟

- نعم، فهمت قصدك. أعتذر، أرجوك تابع.

- وهكذا نما حب الترجمان لعيشة من دون أن تعي به هي ولا غيرها من الناس، حتى جاءت تلك الليلة الصيفية الحارّة، إذ تركت نافذة غرفتها مفتوحة ودخلت لتغتسل، حتى تُبرّد جسدها وتخفّف عن نفسها رطوبة الجو الخانقة، عادت إلى غرفتها من جديد وهي تنصت للكابّو حميد الشاعري من شريط اشتراه لها والدها من المدينة، إذ كان الرجل يحبها ولا يرفض لها طلبًا. أمّا والدها فقد كان يسهر في جنان البيت يشرب خمرته صحبة نديم له من رفاق تشاد. كانت ضحكاتهما تصلان أذني الترجمان الذيّ حاول التخفّي وهو ينظر إلى جسد عيشة ملتفّ بالفوطة. يزداد لهيبه فيغرق في عرقه ورائحة السجائر، فيشرب من قنينة تِبر حفظها من حصته في الغداء للسهرة على أنغام حبيبته، كانت تلك المرة الأولى التي يرى فيها جسدها المرمري وهي ترقص على أنغام الشاعري.

- المرمري؟ ماذا يعني ذلك؟

- الرررررررحمة، لا تقاطعني. قال الحكواتي مسعود وقد طفح كيله من أسئلة ابن عمّه.

- سامحنا. قال علي وأشعل سيجارة وسلّمها لابن عمّه.

- لا عليك يا ولد سيدي، المرمر من الأحجار الكريمة وملمسه ناعم.

قال مسعود بعد أن تنفّس الصعداء وأخذ السيجارة لينفّس عن غضبه.

- طيب.

- هل هنالك أسئلة أخرى، أم أستمر؟

- استمر... استمر. قال الظريف.

- نعم رجاء استمر. قال المثقف.

- استمر. قال الآخرون، الهامشيون في هذه الحكاية، حتى نجد لأحدهم داعٍ لخروجه من الهامش.

- أين كنّا؟ نَعم، تلك الليلة غيرّت مجرى التاريخ، إذ إنّ الترجمان كاد أن يُفتضَح أمره، عندما انزلقت قنينة التِبر من يده فسقطت من أعلى حتى اصطدمت بالأرض لتحدث انكسارًا. توقف الكابّو عن الغناء، وانحسرت ضحكات التشنكوي ورفيقه وسقطت فوطة عيشة عن جسدها المرتجف خوفًا من الصوت المفاجئ، بينما كان الترجمان يختبئ خلف السور يحاول أن يتحكم بأنفاسه. نظر التشنكوي إلى بيت العقيد متتبعًا مصدر الصوت، ثم حوّل نظره إلى غرفة ابنته، فرأى النور ينبع منها، ناداها أن تغلق نافذة الغرفة، ومن ثمّ تحرّك ليتفحص أي نفسٍ بشريةٍ تتجول في المكان. كان الأمر عاديًا بالنسبة إليه، فقد كان يترصّد السُرّاق في هذه الساعة من الليل، ولم يقطع شكّه باليقين إلا نداءات هيثم عضلات في الجنان المجاور صارخًا بالسارق

أن يفصح عن نفسه قبل أن يفكّ حبال الكلب، لم يصمت حتى اكتشف قنينة التبر فعرف أنّ أخاه يعيش مغامرة غرامية مع ابنة الجار، فتحدث مع خيالٍ صنعه «لا شيء يا أمي، يبدو أنّها قطّة أسقطت حوض الغرس»، ومن ثمّ صعد ليكاشف أخاه، مرّت الليلة بسلام.

– لماذا توقفت؟ أين طعم المرأة؟

قال الظريف علي الذي كان منوَّمًا بفعل الحكاية، كما كنتَ حضرتك ولم تنتبه كما لم ينتبه هو، بأنّ الفتى الصغير ابن العقيد كان يلعب الكرة صحبة فتىً آخر بالقرب من شجرة البونسيان. انتبه الحكواتي مسعود للأمر أول مرة في بدء الحكاية عندما شاهد ابن العقيد يقترب إلى ساحة اللعب صحبة أحد أبناء الجيران يمرران الكرة لبعضهما البعض، لكنّه انغمس صحبة الرفاق في الحكاية حتى تناسى وجوده، إلا أنّ حلول هدوءٍ مريبٍ في ساحة اللعب جعله يتذكّر الفتى الذي ركض إلى بيتهم.

عندما أحسّ بتوقّف الحركة في الساحة، ارتعد مسعود، إذ عرف بنباهته ما سيحدث.

– هيا لنتشتّت. قال للجماعة المتحلّقة حوله.

– لماذا؟ قال علي.

– ألم ترَ ابن العقيد؟ قال المثقف بائع الجرائد.

حدث اللغط بين الجماعة، حمَل مسعود نفسه وتحرّك إلى بيتهم بينما تفرّق الآخرون كلّ يبحث عن ملجإٍ له. قبل أن يلج

مسعود باب بيتهم الحديدي لمح أبناء العقيد الغلاظ الثلاثة وهم يخرجون من بيتهم. سمع صياحهم وهم ينادونه، لكنّه أسرع إلى جنان بيتهم ليخرج من بابٍ خلفيٍ إلى سانية العائلة. وجد ضالته في حظيرة الأغنام، فقفز داخلها ليجد ابن عمّه علي مختبئًا في المكان الذي كانا يختبئان فيه وهما فتيّان يجرِّبان السجائر أول مرة بعيدًا عن أعين الرقيب. ضحكا، لكن ضحكهما لم يطل، فقد تعالت صيحات أبناء العقيد وهم ينادون أرباب عائلة المدني أجمعها ويطرقون أبوابهم. جمدا. اقترح عليٍ الخروج إلى المواجهة، وقد كان يغلي؛ لكنّ مسعود كان خائفًا يرتعد كأنه في أشدِّ الليالي البيض صقيعًا.

خرج الإخوة المدني صحبة أبنائهم ليجدوا أبناء العقيد الثلاثة يلحّون عليهم أن يسلموا مسعودًا لهم. كانت التُهمة أنّ الدّعِي ينال من عرضهم ومن شرفِ أخيهم ومن اسم العقيد، واصفًا إياهم بالشهوانيين. وحتى لا نزيد الحبكة تعقيدًا، استدعوا شاهدًا من جماعة مسعود، كان الشاهد ابن الشيخ عبد السلام النّوري وقد جاء صحبة أبيه شيخ الأزهر الذي جاء ليحكم بينهم بالعدل. كان آل المدني كثيرون، وكانوا العائلة الوحيدة بين عائلات القرية التي اتخذت موقفًا جهوريًا بعدم التحيّز إلى طرف، وقرروا أن يقفوا موقف حيادٍ بين الفريقيْن، وبهذا رفضوا التهمة كما رفضوا تسليم ابنهم، الذي أقرّوا في قلوبهم، أنّه جلب لعائلتهم العار. اشتعل غضب أبناء العقيد، فركض أوسطهم إلى داخل بيتهم ومن ثمّ عاد بفأس ليقطع شجرة البونسيان، صائحًا بأنّه سيذيق

مسعود الويل إن وجده يومًا في الشارع، ورغم تدخل الشيخ لإيقافه محاولًا إقناعه بأنّ الشجرة لا دخل لها في الفسق الذي كان يجري تحتها، إلا أنّ الشاب العنيد لم يتوقف حتى سقطت الشجرة وطارت العصافير التي حولها، بينما كان أخواه يتناقشان مع كبار آل المدني. وهكذا... سقط العش الذي يحمل غربان حرية التعبير والحمد لله.

10

لست في حاجة لإخبارك بأنّ العراك لم يؤثر في القرية بأكملها، إذ إنّ هناك أحياء بعيدة عن مكان العراك عاشت حياة طبيعية، حيث يعمل الرجال فيها كل يوم ويأتون في الظهيرة لينتقدوا زوجاتهم اللائي لا يفهمن في الطبخ، ومن ثم يمازحونهنّ بتهديدٍ -أو أمنية علنية- بالزواج من امرأة من جنسيةٍ أخرى، سوريّة ربما، فالسوريّة تدلّع الكِرش. مصرية ربما، فالمصريّة تدلّع النّفس. وتونسية أيضًا، فالتونسيّة تدلّع العقل. هذا من عندهم وليس مني. كما استمر الأطفال في تلك الأحياء باللعب والتهرّب من الكتّاب، واستمّر الشباب في حب بنات الجيران اللائي استمر بعضهنّ في تمنّي السفر والترحال أو العمل والخروج من القرية، كما استمرّت الأخريات في تمنّي الزواج بفارس الأحلام، هيثم عضلات مثلًا، أو بطلنا عيسى العربي الذي علا نجمه بينهنّ، لم أكن في حاجة لإخبارك بكل ذلك، لولا معرفتي، بأنّ ناعقًا ما، سيأتي ويقول إنّ حكايتي هذه لا تمثّل الحكايات التي تأتي من القرية، وإنّها محاولة لتشويه صورة المجتمع، بل محاولة ماسونيّة لتشويه سمعة الحروب والمعارك في عالمنا.

وبما أنني أخبرتك بذلك وبرّأت ذمتي مما قد تتفوّه به، وحتى لا يهرب منّا خيط الحكاية، فقد استيقظت الحاجّة مبروكة فجرًا

وقد وضعت في رأسها مكيدةً واحدة. جهزت الإفطار لشبح ابنها وتركته يكمل نومه حتى إذا استيقظ وجد البيض جاهزًا للالتهام والشاي يحتاج فقط لدفعة من الحرارة حتى يشربه. نظّفت الحاجّة البيت وأخرجت للقطط النِّعْمَة لتأكل، وعند شروق الشمس، التحفت رداءها، فتّشت في خزانة الملابس عن مزقةٍ من الحرير لفّتها جيدًا وحشرتها في التقاء الرداءِ بقفطانها عند صدرها صحبة نقودها ومن ثمّ لَبِستْ الفرّاشية وخرجت من بيتها. كانت القرية تتكاسل في الاستيقاظ ولم يكن في مستقر نظرها شيء سوى نباتات الهِندي وهي تحمي سانية عائلة المدني ومنظر شجرة البونسيان وقد صارت ملعبًا للأطفال بعد سقوطها. ولم يكن في الإنس حيٌّ يمشي في القرية، ولا يمكن لروح غير روح الحاجة وأرواح العصافير والقطط أن تتحرّك في ذاك الصباح الباكر. انتابها نشاطٌ دبّ في جسدها فتحركت بسرعة متجهة إلى خارج القرية. في طريقها مرّت بصورة القائد، كانت صورة جديدة ركّبتها البلدية بالأمس احتفالًا بعيدٍ من الأعياد التي تملأ البلاد، حيّته ودعت له بالصحّة والعافية والنصر على الأعداء الروم والعرب واليهود منهم. ثمّ مرّت من السوق الشعبي الذي ستدبّ فيه الحياة في الغد القريب، تسيرُ مودّعة آخر بيوت القرية في التقائها بواحة نخيلها، تَمرُّ داخل الواحة وتمشي حتى تصل في نهاية الواحة إلى مقام مرابط القرية. دخلت جنّة المرابط وصلّت ودعت وجلست عند روضته تناجيه وتناجي أجدادها الغابرين، «عَلَيّ أن أذهب يا سيدي»، قالت الحاجّة للمرابط معتذرة منه، ثم تابعت سيرها

حتى وصلت إلى هدفها. كان بيتًا قديمًا لم تصله تحولات الحداثة الشّاميّة التي وصلت إلى بيوت القرية من بعد. تعتليه قبّة ليزيده إشعاع الشمس رهبة في القلوب. هاج قلبها، التفتت إلى الخلف فلم تجد إلا خيالات أشجار النخيل وخيال المرابط في الأفق، تقدمت نحو الباب وطرقته. خرج لها رجلٌ خمسيني، كان متدثرًا بالخوف. رحّب بها الرجل، ترك لها الباب مفتوحًا ودخل روضته هو أيضًا، كانت الحاجة تتبعه لتمرَّ بين عشراتٍ من القطط تختلف أشكالها وألوانها وأعمارها، «هل جئتِ لي بما طلبت يا حاجّة؟»، سألها الرجل وهو يتقدمها إلى غرفة مظلمة في البيت، هي الغرفة التي تستقر فوقها القبّة. جلس أمام كانونٍ وضع فيه بخورًا يجعل الغرفة تعبق بالدخان، تقدّمت لتجلس أمامه، أخرجت المزقة من صدرها وفتحتها لتظهر منها شعرة بيضاء.

11

كان بطلنا المغوار عيسى العربي في الأثناء ينتظر إذن الخروج من المستشفى. حالته تحسّنت إلا أنّ الضمّادات تغزو جسده. تجمعّت عائلته تَعودُه وتحمد الله على سلامته، فقد أفلتَ من عينِ الموت. أشعل سيجارة صحبة أبناء عمومته الذين تجمعوا حولَه في حديقة المستشفى. كان الحديث الوحيد الذي يدور بينهم ويشغل بالهم هو الانتقام لحَمَلِهم من المجرم الذي اصطنع فيه الثقوب وأذلّه وافتكّ منه سمكه. لكن هو، على النقيض، كان يحلم فقط بالعودة إلى البحر، المكان الذي افتقده بشدّة طيلة أيام حجزه في المستشفى، لا يحلم إلا بأمواجه وهي تلاطم جسده المسجّى على السرير. كان بإمكانه أن يشتم رائحة الملح والأسماك بينما يتبادل أبناء العمومة الآراء حول الكيفية المثلى للانتقام. أحدهم، وكان خشنًا عظيمَ الجسد، اقترح تأليب أبناء قريتهم أجمعين للهجوم على جهنّم، مما قد يزيد تعقيد حبكتنا، وهو أمر لا نرغب به إذ لا طاقة لنا بتطويل حبال القصّة. قال آخر إنّ عليهم أن يتربّصوا لعضلات ويتحيّنوا الفرصة الملائمة لاختطافه ومن ثمّ تعذيبه كما يشاؤون.

– يمكننا، بعد التأكد من إعاقته، أن نعيد جسده على حمارة تحملُ تحذيرًا لأبناء قريته، اقترح صاحب فكرة التربص.

- لكننا لا نملك قوّتهم وقد ينتقمون لانتقامنا، ثم من أين نأتي بالحمير؟ قال آخر.

- عندها سننتقم لانتقامهم، وأمّا الحمار فنسرقه من قرية أخرى. قال صاحب فكرة التربص.

- إذًا عندها سينتقمون لانتقامنا من انتقامهم، وبعد ذلك سندخل في دوّامة مع القرية التي سنسرق منها الحمار ونجد أنفسنا أمام جبهتيْن لا طاقة لنا بهما، قال معارض فكرة التربص.

- نحمله على ظهرك إذًا.

قال الغليظ للمعارض للذي كاد سيدخلنا في دوّامة من الانتقامات، ثم أضاف:

- هم الآن منقسمون.

- ولكن ما يدريك علَّ فِعلتنا توحّدهم، أراد المعارض الخسيس إعادتنا إلى دوّامته.

- ولكن ما يدريك علّ أمّك لم تنجبك من أبيك، قال الغليظ فيريحنا من هذا الصداع.

كان عيسى العربي يدخّن سيجارته ويعاود تشكيل جسد قاربه والمشكلات التي كان عليه أن يصلحها فيه، أراد أن ينتقم من غريمه بطريقته، أن يدخل البحر ولا يخرج منه إلا باصطياد أكبر سمكةِ تونة رآها أهل قريته، قرية شطّ الصردوك، في تاريخهم.

- لمَ لا نقدّم شكوى للشرطة؟ قال أخ عيسى الأصغر.

- لأنّ الشرطة لا تهتم بهذه الأمور، أجابه صاحب نظرية الانتقام.

كانت نقاشاتهم تقطع عنه استمالته لأمواج البحر أن تطرب خياله بإمساك السمكة الكبيرة. تشنَّج.

– لن نفعل أي شيء. نطق أخيرًا.

– سامحني يا عيسى، لستَ أنتَ من تَلَقَّى الطعنة، بل أنا وعمّك وأباك. قال ابن عمه المارد الغليظ.

– ولكن لا يبدو عليها أنّها تؤلمك. بل تؤلمني أنا. قال عيسى، وألقى بسيجارته، وأراد النهوض.

– إنّها تؤلمني وتؤلم الجميع. تؤلمنا في كرامتنا. لن أسمحَ لك بأن تسقطَ حقّك أبدًا. قال له، وأمسك بيده الغليظة ذراع بطلنا.

– افعلوا ما شئتم، لكن لا تحشرني في الموضوع.

– لا أحشرك؟ هل تريد له أن يطعنك مرة أخرى؟

– إن شاء ذلك أعرّي له صدري.

غاب عيسى في البَحر لأيام. كان لا يخرجُ من المياه إلا للنوم على عشّةٍ اصطنعها على الشاطئ. لا يقبل ضيوفًا إلا المقربّين له من أبناء العمومة. أحدهم كان ذلك المارد، يأتيه في الليل فيشربان ما تيسّر لهما من البوخة ويشويان السمك الذي اصطادته شباك عيسى. يحاول المارد أن يقنعه بقبول أفكاره، فلا يجد أذنًا تنصت له. في كل مرة يغيّر الخطّة حتى تروق لابن عمّه، لكن يفشل في إقناعه. يشتمه ثم يتركه لينام. في الفجر يستيقظ بطلنا ليعود إلى البَحر، يرمي بشباكه إليه، تُخرِج الشباك أسماك السردين، يلقي بها مرة أخرى إلى البحر ويبحث عن الأسماك الكبيرة، أحيانًا يتسامح مع نفسه ليبقي على سمكاتٍ بحجم معقول، أحيانا أخرى يرمي بكل شيء ويتقدّم إلى الداخل، يغطسُ باحثًا عن سمك التونة غير آبه بتحذيرات الطبيب من الولوج إلى البحر وجروحه لم تشفَ بعد.

يعود إلى قاربه ليتكئ تحت مظلة تحميه من عينِ الشمسِ في كبدِ السماء، تغفو عيناه، فيحلم بهيثم عضلات وهو يكيل له اللكمات والضربات ويطعنه ويصفعه. يراه حوتًا كبيرًا يسعى لابتلاعه، يهرب منه إلى الشاطئ لكن من دون جدوى، فالحوت قادر على المشي على الشاطئ. يلاحقه جريًا حتى ينهض وقد جفّت شفتَاه من ملحِ البحر وحرارة الشمس. يتصبب عرقًا. يغطس إلى البحر مرة أخرى رغم التعب. يبحث عن أسماك التونة فلا يجدها.

في ليلةٍ جاءه إخوته وأبناء عمومته يقودهم المارد، أكلوا وشربوا وضحكوا بينما كان هو يجلس أمام الشاطئ تحت ضوءِ القمر يناجي سمكة التونة أن تخرج له. كان الجمع يحتفلون بمضي يوم آخر في عصر الجماهير. جلس ابن عمه الغليظ بجانبه وقد مدّ له كوبا من البوخة.

- لم أرك تشرب الليلة على غير عادتك. قال له.
- ما عندي نيّة.
- والدك طلب مني أن أعود بك إلى البيت. لقد مضى أسبوعان على آخر مرة سبّك فيها.
- لن أعود، ليس قبل أن أصطاد تونة ضخمة.
- ولكن يا عيسى، فات موسم التونة.
- ماذا؟ لماذا لم تخبرني بذلك من قبل؟
- لم تخبرني بأنّك تريد إمساك التونة.

.

كلمات ابن عمّه صدمته، أراد أن يداري جهله، فهو الذي كان يتباهى دائمًا أمام الجميع في قريته الهامشية في حكايتنا هذه، أنّه يعرف موسم صيد كل كائن يعيش في أعماق البحر أو على سطحه، يعرف الأوكار التي تتخذها ويعرف كيفية اصطيادها. ها هو الآن بدا أمام المارد جاهلًا حقًا. بدا قُدّام نفسِه غبيًا وهو يصرّ على بحثه الآيل إلى الفشل عن السمكة. بدا مشتتًا كأنّه يحرث في البحر. نهض من مكانه ومشى على الشاطئ تاركًا المارد وبقية الرفاق يشربون ويغنّون للقمَر أن ينزل ليشرحوا له عذاباتهم في حب بناتِ الجيران. مشى على طول الشاطئ يحاول طرد فكرة ما، فكرة أثقلت قلبه تقول له بأنّ سبيله الوحيد لأن يسترجع كرامته التي فُقِدت منه لا يكمن في اصطياد أعظم أسماكِ المتوسّط، إن وجدها. بل يكمن في أمريْن، إمّا أن يعود إلى جهنّم ويبارز جلّاده أو يهرب حيث لا يمكن لأحدٍ أن يعرفه. كان وقع كلمة الهروب قويًا على قلبه. كلمةٌ جعلته يقف وينظر إلى البحر، ليرى الأمواج وهي تلاعب أصابعه، كأنها تخبره أنّ الشمال يمكن أن يحتضنه.

12

كان القائد واقفًا على المنصّة يخطب في الجماهير خطبةً حماسيةً يحيي فيها الآمال بالنصر على الحصار الأمريكي الغاشم على أراضي الوطن. الجماهير كانت تبادله حماسته من الجهة الأخرى بشعارات تضجّ بها الحناجر، مؤكّدةً له أنّه هو القائد الأوحد ولا قائد سواه. تطالبه أيضًا بأن يرفع من مستوى التحدّي، فهو، كما تصفه الصقر الوحيد. تحدّث القائد عن كل شيء، عن عصر الجماهير والنظرية العالمية الثالثة وبشائر انتشارها في أصقاع الأرض وتطبيقِ دولٍ هامشيةٍ كسويسرا لها، وتحدث عن التجّار الذين يحاولون سرقة ثروة وثورة الشعب ووصفهم بأشنع الأوصاف، وبلغ به الحدّ أن وصفهم بأنّهم أقبح من الصهاينة. كان ذلك زمن جميل يمكننا أن نشتم فيه العالم بأسره من دون أن يتهمنا أحدهم بنشر خطاب الكراهية.

كانت عائلة العقيد متوزعة حول شاشة التلفاز وهي تشاهد القائد يلقي بخطبته الحماسية، العقيد يجلس في صدر المكان منزعجًا من الرجل الأرعن الذي يراه في الشاشة، فقد آمن دائمًا أنّه كان قائدًا أفضل منه. هيثم والترجمان كانا يضحكان من هيجان العقيد والجماهير، تعلّما كثيرًا من تلك الخطب، هيثم تعلّم أنّ الجماهير منافقة، بعد أن كان يراهن عليها. أما الترجمان، فقد تعلّم كيف

ينقل كلمات والده لأبناء الحي بحماسة. الأخوان التوأمان كانا يتحدّثان لأمّهما عن شهرتهما في القرية. كان الجميع في الحي -كما حدث ولم أخبرك- يسمونهما «طيرا الشر»، وينادونهما بذلك اللقب. لم يكن تأفف الأم بسبب همز الرعاع على أبنائها، بل إنّ ما جعلها تغضب هو فخرهما بذلك. سخطت وصاحت في الفتى الصغير. كان الفتى يضايق أخته و«يتنمّر عليها»، كما نقول في هذه الأيام اللعينة، صرخت الفتاة فتمازجت صرختها مع صيحة للقائد وهو ينادي أمريكا أن تنظر لشعبه الذي يقف معه. توقّف كل ذلك، كما يحدث في السينما المصرية، عندما سمعوا طارقًا لا يتوقف عن طرق باب البيت الحديدي وينادي في هيثم عضلات.

- ماذا تريد يا ولد التشنكوي؟

كان ابن جمال واقفًا أمام الباب، في مشهد جديد لم يعتد عليه الحي ولا القرية بأكملها منذ ما يزيد على شهريْن، فالزمن في الحروب على عكس ما تتوقّع يمرّ بسرعة، هذه «شطحة» لا يمكنك تكذيبها، فأنت لم تعش في حرب مثلي. كان هيثم وولد التشنكوي مقرّبان قبل العراك، وتحوّلا مع الأيام إلى ألدّ عدوين. شاهد هيثم في عدوّه ملامح صداقة قديمة عندما كان يقرع باب بيتهم ليهربا من القرية في حافلة متجهة إلى المدينة، ويجلسان في مقاهي المدينة ويتسكعان النهار بأكمله في شارع عمر المختار بالعاصمة، ويتحرشّان بالجامعيّات ويهربان من أعين الأمن؛ لكن

تلك الملامح سرعان ما انطفأت عندما تدارك هيثم الموقف الجديد الذي يعيشان فيه.

- جئت طالبًا هدنة.

كانت أخبار الفضيحة التي سرّبها مسعود المدني وصلت لأذنيْ جمال من عينٍ له في القرية. لا فضيحة يمكن أن تختبئ في قريتنا هذه حتى وإنْ جاهد الإنس في قهرها. كان ابن التشنكوي يجلس صحبة والده يساعده في طبخ التين من أجل بوخة الصيف عندما جاءه العَيْن ليخبره بما جدّ في القرية، بالقصّة التي انتشرت عن طعم ابنته عيشة. كان جمال غير آبه بما يقوله العين وكأنّه يعترف ضمنيًا بأصل القصة، وبأنّ الفتى مسعود محقّ في ما ينقله، لهذا لم يلبث أن سرّح العَيْن بعد أن أعطاه قنينة خمرٍ ينسى بها القصة وما حدث. تعارك الولد مع أبيه، سأله كيف يمكن له أن يترك الناس تنهش في لحم أخته من دون أن يحرّك ساكنًا، وطالبه بأن يجمع جنده ليطالب عائلة المدني بتسليم ابنهم، «اصمت يا ولد وركّز مع التين»، كان هذا ما قاله له والده. لكن الولد لم يصمت، كان يصرخ في البيت طيلة اليوم، دخل غرفة أخته، وجدها تقرأ روايةً إيروتيكيّةً. «ماذا تريد؟»، قالت له، بينما لم ترفع عينيها عن الكتاب. كان جاهزًا ليلقنها درسًا، أمسك بشعرها وجرجرها إلى النافذة المطلّة على بيت العقيد. كانت عيشة تناجي أمّها وأباها أن ينقذاها، لكنّ أخاها تمكن منها وظل يضرب رأسها بالنافذة إلى أن تلطخ المكان بدمها. ركلها في بطنها وظل يشتمها ويشتم

حبيبها الخيالي، «سأقتلك إن كان ما ينقلونه عنك صحيحًا»، قال لها. تفَّ عليها وصفعها، ومن ثم خرج على حالته إلى بيت العقيد.

– ما المناسبة؟ قال هيثم وقد توقّف عند منظر غريمه ولاحظ بقع الدم على ملابسه.

– أريد أن أقتله يا هيثم، لكن قبل ذلك أريد أن أسمع الحقيقة من لسانه.

– من الذي تريد قتله؟

– ابن المدني. لن أهدأ حتى أجده وألقنه درسًا.

– لن أعدك بهدنة بين العائلتيْن، لكن لا أمانع في هدنة بيننا.

– اتفقنا.

13

هذا وقد شاهد الحاج إمحمّد مشهد اجتماع الشابيْن بينما كان يمرّ من منزله الجديد بملحق الجامع إلى الطريق الرئيس، حيث اعتاد أن يقضي بعضًا من النهار عند السيد محمود في الجمعية. ترك الشّابان ومرّ باللافتة التي تستعرض صورة القائد، خطرت في باله فكرة، لكنه طردها بسرعة قبل أن تتملّكه، أو يعرف بها أحد. تابع الحاج مشيه حتى وصل إلى الجمعية. وعلى عكس كل ما يحدث في القرية، كان هناك لحن يغمر المكان يحتفي بالثورة ويعِد القائد بأنّ الجماهير لن تتخلى عنه أبدًا وبأنّها على دربه تسير. ولج الحاج الباب ليجِد أمين الجمعية يوزّع الأرز والحليب على طابورٍ من مواطني القرية. كان أحد المواطنين يطالب الأمين أن يزيد له من الحصّة، فهو رب أسرة كبيرة ويعيل أمّه وأخواته وإخوته الصغار.

– إمّا أن تأخذ ما تحصلت عليه يا أستاذ، أو تتركنا لحال سبيلنا، لدينا شغل.

سمع الأمين يقول للرجل، فأخذ الرجل حاجته وراح. نحنح الحاج ليعرف السيد محمود بوجوده فرحّب به، وطلب منه أن يدخل إلى المكان الممنوع على غير العاملين.

– تفضّل يا حاج، ساعد روحك، سآتيك بعد قليل.

جلس الحاج وصبّ لنفسه كأسًا من الشاي، أخذ سيجارة من سجائر السيد محمود ودخّنها، وظلّ يتابع عملية البيع التي كنّا نسمّيها وقتها «توزيع»، ويتأمَّل في معاملة الأمين لإخوته المواطنين.

- أهلًا يا أستاذ خالد، تفضّل أرز وحليب وقد دسستُ لك وللعائلة صندوقًا من الزيت. يا حاج... أرجوك، أحضر لي صندوق الزيت بالداخل.

قال السيد محمود من دون أن يلتفت ناحية الحاج. دخل الحاج المخزن، فقد اعتادَ على تلبية طلبات الأمين لقاء الشاي والسجائر والحكايات. بحث عن صندوق الزيت لحظات بين الصناديق المرصوصة لمواد مختلفة، وكل صندوق مكتوب عليه اسم العائلة التي خُصص لها. وجد الصندوق بالقرب من صندوق شاي. أزاح صندوق الشاي من دون أن يراوده أي شعور. في السابق، كان سيغضب إن شاهد ولو علبة واحدة من الشاي في الجمعية، لكن الآن، لم يعد يهمه الأمر، كان سعيدًا بحصوله على الشاي من برّاد الجمعية مباشرة. بل على العكس، أصبح أشبه بانتصار له أن يشرب من شاي الجمعية من دون أن يضطّر لدفع شيء سوى العمل على غَلْيِه والانتظار ريثما يجهز. أخرج الحاج صندوق الزيت وسلّمه للسيد محمود، همس الأمين للحاج بأنّ هذا الصندوق سيساعده في تسهيل إجراءات فتح دكانة لابنه.

- إذًا يا حاج، ما هي أخبار القرية هذا اليوم؟

قال الأمين بعد أن صرف الناس وأغلق باب الجمعية للراحة.

إذ ليس من المعقول أن يحاوره وهو مشغول بتوزيع ثروة الأرز والزيت على النّاس.

- اليوم رأيت أغرب الأمور، رأيت ابن جمال وهيثم ابن العقيد، يتصافحان.

- أمرٌ عجيب فعلًا، تُرى ماذا وراء هذا الحدث؟

- لا أعرف.

- لا بد أن نعرف يا حاج.

- إن أردت رأيي، فالأمر بالتأكيد له علاقة بحادثة ابن المدني.

- تعجبني يا حاج، ولهذا أردت أن أزفّ لك خبرًا سيسعدك، اليوم كنتُ في اجتماع مع الشرطة وأخبروني أنّهم توصلوا لمعرفة نوع التفجير الذي حدث في بيتك.

- وهل أخبروك من فعلها؟

- لا يا حاج، إنهم مستمرون في التحقيق بالأمر، لكنّهم الآن متأكدون من أنّ التفجير جاء من أنبوبة غاز.

- هذا أمر أعرفه.

- لكنك لم تكن متأكدًا منه، هذا ما أقصده. لقد وجدوا في مخلفات التفجير رأس الأنبوبة، وتأكدوا بعد الفحص في المختبَرات بأنّه يعود لرأس مصنّع محليًا لصالح الشركة العامة لنقل وتوزيع الغاز. حقّقوا مع مستودع الغاز بالقرية وأعادوا قراءة كافة تقارير البيع التي حدثت لمدة عام ليتأكدوا من أنّ الأنبوبة التي استعملها المفجرون لم تكن مسروقة من المستودع.

- إذًا؟ هل كانت مسروقة من المستودع؟

- لا يا حاج، وهذا يتركنا أمام أمرين، إما أن تكون الأنبوبة المتفجّرة لك أو تعود لأصحاب البيت الذي جاءت منه.

- وماذا أستفيد أنا من كل هذا؟ سأل الحاج وقد تأفف وسمح لنفسه أن يصبّ كأس شاي أخرى.

- الحكومة بجانبك يا حاج، كما أنّني بجانبك. ولهذا وبعد أن أتممتُ موضوعي عند مركز الشرطة ذهبتُ رأسًا إلى مستودع الغاز واتفقنا أنا وأمين المستودع أن نعوّضك.

- حقًا؟

- نعم، وقد وعدني أمين المستودع أن يفعل ما في وسعه ليعوّضك بأنبوبة غاز جديدة من الشركة. بحبح.

- ماذا؟

- كما سمعت يا حاج، وأنا تضرّعت للشركة أن تحجز لك غازًا لتطهو لنا عليه مكرونة احتفالًا بذلك.

- والبيت؟

- البيت لساكنه يا حاج هاهاهاهاهاها.

لم يفهم الحاج النكتة التي ألقاها السيد محمود، ولا أظنّك فهمتها، ولهذا سأخالف قواعد الحكاية وأشرحها لك. هذا يا سيدي، وبحسب القانون رقم 4 من سنة 1978 تحوّلت ملكية البيت لساكنه عملًا بإرشادات الأخ القائد المعلّم في كتابه الأخضر. في تلك السنة تحوّلت ملكية العديد من البيوت من أصحابها إلى المستأجرين الذين استفادوا من القانون الجديد؛ تلك هي الخلفية القانونية للنكتة. أما الخلفية الفنطازيّة، فتعود إلى ما تناقلته الأفواه

بعد احتراق بيت الحاج وانتقاله إلى الجامع. تناقلت الأفواه أنّ غولًا سكن البيت بعد أن بدأت أصوات غريبة تصدر منه، ما دفع الشباب الذين كانوا يتخذون البيت لمغامراتهم الأولى في تجربة السجائر والخمر والنساء، إلى إيجاد بقعة أخرى لهم. هُنا وفي هذه النكتة، يخبر السيد محمود، بفكاهة رائعة أنّ بيت الحاج الآن هو ملك للغول. وشكرًا لأنّك أفسدت عليَّ اعتزازي بنفسي وذكائي وقدرتي في حكي النكات على لسان الشخصيات.

لم يلبث الحاج طويلًا عند الأمين، أخرجته أحاديثه عن ضرورة وقوف أهل القرية في وجه الظلم. وأطلقت رجليْه للريح لا يلوي على وجهةٍ يقطعها، لكن في منتصف مشيِه واتته رغبة في التضرّع لأحدهم، أيًا كان، وكان لحسن حظّه في الواحة، فتحرّك بين أشجار النخيل ينصتُ لليمام والهدهد يغنّي للحياة وللحب والسلام وفكّر أنّ عليه أن يهجر القرية بأكملها ويجد لنفسه ملجأ في ما تبقى من الطبيعة. كان قد كرِه الواحة بعد أن لاحظ مع الزمن اختفاء الكثير من نخيلها، هي بالكاد واحة الآن، لكنه شعر بالحنين إليها، فقد حمته وأهله من الزمان وصروفه. تحرّك إلى المرابط وجلس عنده، ظلّ يحكي له ما يجري في قريته التي حماها يومًا من النصارى وأبناء الروميّة، وما حدث لأحفاده وما جرى للسانية التي جرفتها نيران العراك مرّة وما مرّ به وببيته الذي سرقته منه الأشباح. كادت الدمعة تنزل من عين الحاج، لولا أنّه لاحظ في الأفق طيف امرأة متلحّفةٍ البياض تتقدّم نحو المرابط.

- ماذا تفعل هُنا يا حاج؟
- أزور سيدي وأشكو له يا حاجّة.
- ومما تشكو يا حاج بعيد الشر؟
- بيتي يا حاجّة، بيتي قفزت فيه الغولة.
- ومن أخبرك بذلك؟
- أمين الجمعية.
- وهل تصدق كل ما يقوله لك أمين الجمعية؟

ضحك الحاج، لم يعرف أبدًا لماذا تصرّ الحاجّة أن تطرح عليه هذا السؤال دائمًا.

14

أمّا الحاجّة فقد كانت عائدة من عند سيدها الشيخ، انتظرت أيامًا لتتحقق أمنيتها التي ألقتها في الحِجاب ودسّتها في بيت العقيد في إحدى زياراتها السابقة، لكن لم يحدث أي شيء مما طلبته، بل إنّ شبح ابنها -الذي نعرف جميعًا أنّه يعيش في الاتحاد السوفِييتي المتهالك- كاد أن يلحق به الضرر عندما جرّب أن يخرج من البيت. ولولا هامشية وجوده بأكمله لقتله هيثم عضلات في مكانه، فقد كان هيثم في ساحة اللعب يبحث عن ابن المدني تحت الصخور وفي همسَات البيوت، عندما توقف ليراه يخرج من عتبة البيت. حكّ هيثم عينيه إذ لم يصدق أنّ من يراه هو غريمه الذي طارده لأيام، كان الفتى ابن الحاجّة ذكيًا بما يكفي ليعرف بأنّ هيثم شكّ بوجوده، على عكسِ ما أخبرته أمّه بأنّ ما فعله سيدها الشيخ هو أنه أعمى أعين الأعَداء عنه، فدخل باحة البيت بسرعة وظلّ لأيام لا يخرج من سريره. عندها قررت الحاجّة أن تذهب لسيدها الشيخ لتشتكي له من الصلّاح الذين خذلوها. تأسف الشيخ وأخبرها أنّ المشكلة كانت في أنّ الشَّعر الذي أتت به ليس شعر العقيد، بل شعر كلب العقيد. سألها:

- هل في الكلب شعر أبيض؟

- وما أدراني؟ هل تراني مربية للكلاب؟ أنا أخاف ذكرهم فما بالك رؤيتهم.

- أحضري لي شعر الرجل الذين تريدين سحره يا حاجّة.
- أستغفر الله، أشهد أنّ لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمدًا رسول الله.
- آسف، أقصد الذي تريدين من الصلّاح أن يتحدثوا معه.

هذا ما كان من أمر الحاجّة عندما التقت بالحاج إمحمّد، وقبل أن تتركه في حال سبيله بعد أن وضعت سؤالها في أذنه ليتأمّله لأول مرة في حياته. انصرفت الحاجّة إلى القرية ووصلت لتكمل ما تبقى من يومها، إذ كان عليها أن تجلب الأخبار إلى العقيد من أهل الحي. توقفت أول الأمر عند العطّار، طلبت هذه المرة أعشابًا مختلفة الأنواع مما ترك العطّار في شك، فلاطفها سائلًا:
- هل تنوين سحر أحدهم يا حاجّة؟
- الأمر لا يخصّك، وأحضر لي علبة النّفّة، قالت له.
- على رسلك يا حاجّة، على كلٍّ إن أردتِ سحر أحدهم فآمل أن يكون العقيد. قال العطّار الغبي.
حدجته الحاجّة بنظرة ثاقبة تركته مرتابًا، فأضاف متراجعًا عن قوله:
- أنا أمزح يا حاجّة.
ألقت إليه بنظرةٍ غاضبة:
- لو لم أكن في حاجةٍ لك لقلتُ للعقيد.

أخذت منه الحاجيات وخرجت لتدخل إلى دكانة السجائر لتشتري لابنها سجائره المعتادة، ومن ثمّ دخلت الجمعية، وجدت

الأمين نائمًا وقد ترك المذياع على أغنية لأم كلثوم تغنّي فيها لعُمرِها. أيقظته فصرف لها الرجل أرزًّا وشايًا وسكرًا وبسكويتًا كانت قد طلبته منه. حاول الأمين أن يتحدّث معها لكنها نهرته قائلة: «أرجوك لا تخرا في وجهي». زارت أولًا الأبلة سعاد فوجدتها كما هي، محافظة على فرجها العطِر، معذّبة بين حصص الرسم وبين تربية أطفالها وبين انتظار عودة زوجها من الصحراء الكُبرى ليصفعها ويضربها. عرّجت بعدها على بيوت عدّة التقطت منها حكايات عن فضيحة بيت العقيد وبيت التشنكوي، وعن قصةِ الحُب التي تفرّق البيتيْن. اقترح العديد من الجيران أن يتزوج الترجمان عيشة ابنة جمال، حفظًا للسُمعة وإنهاءً للعراك؛ كان الأمر منطقيًا من وجهة نظرِ الحاجّة، فقد تزوّج ضابطٌ رومي إحدى بناتِ شيخ قبيلتها على أن يدخل الضابط الإسلام وتهدأ حروب الردّة على الحكومة في تلك الأيام. وبعد أن أنهت جولتها توجّهت، كعادتها، إلى بيت العقيد.

كان العقيد وأبناؤه متجمّعين حول كرتون وضعوا عليه أحجارًا. وعندما دخلت الحاجة، أخذ الترجمان الكرتون وجمع فيه الأحجار بسرعة وحشره في المكتبة.

- تلعب مع أولادك الخربقة يا وليدي العقيد؟

سألته ثم أضافت:

- كان الحاج الله يرحمه يجلس دائمًا عند شجرة البونسيان صحبة الحاج المدني والحاج إمحمّد يلعبون الخربقة طيلة النهار قبل أن يأخذ الله أمانته.

ابتسم العقيد لأفكار الحاجّة وشرح لها أهمية لعبة الخربَقة، وكيف أنها، على عكس ما تبدو، لعبة العقول.

- الشباب في هذا الزمن يفضّلون اللهو بالكارطة، ولو كان الحكم في القرية بيدي لمنعت الكارطة.

ترجم الترجمان كلام والده، لم يكن هذا الشرح يهمّ الحاجّة التي كانت تنتظر من زوجة العقيد أن تضيّفها الشاي، وهذا ما فعلته زوجة العقيد إذ طلبت من الفتاة أن تجيء بعدّالة الشاي. جلست الحاجّة في البدء تتحدّث إلى زوجة العقيد في كل ما تتحدث عنه النساء. وعندما شعرت بالضجَر، انتقلت إلى العقيد لتخبره بما سمعته من أخبار، وكان الخبر الأهم أنّ بيت الحاج إمحمّد قفز فيه الغول ولا يريد الخروج.

- ولماذا لا يريد الغول الخروج من بيت الحاج إمحمّد يا عمتي مبروكة؟، سألها هيثم كعادته في مشاكسة الحاجّة.

- وأنا ما أدراني يا بُني؟ عمتك الحاجّة لا تعرف شيئًا مما يحدث في هذه البلدة، تعرف سجّادتها وصلاتها بس.

- وهل تعرفين أين ابنك الآن يا حاجّة؟ سأل هيثم.

- وصل إلى جبال الثلج، اتصل بي من هناك وقال لي بأنّه سيعود في العيد الكبير.

- أرجو ذلك، فقد تنقصنا أضحية هنا.

- ماذا؟ سألت الحاجّة وقد وضعت يدها إلى أذنها.

- أقول يا حاجّة، قد تنقصنا يد تساعدنا على الأضاحي هنا.

- إن شاء الله يا ولدي.

- يقولون إنّ الحاج إمحمّد يمضي أيامه عند الكلب أمين الجمعية يا حاجّة، هل هذا صحيح؟

- يقولون. الناس تقول الكثير من الأمور هذه الأيام، سمعتُ بأنّ الذي لا أريد تسميته، يسعى لشراء كلاب لتغلب كلبكم يا ولدي العقيد، ويقولون أيضًا إنّه بدأ باصطياد الكلاب العربية في القرية لهذا الغرض. قالت الحاجّة كلامها وأدارت وجهها إلى العقيد.

- لا كلب يمكنه أن يستكلب على ريجان، قال هيثم.

- عليه لعنة الله.

أفلت هيثم وإخوته ضحكاتهم.

- يا حاجّة ريجان هو الكلب.

أراد الترجمان أن يوضح اللبس للحاجّة، فقد كانت تكره ريجان الرئيس، كما كانت تكره ريجان الكلب، لهذا ردّت عليه بأنّ الأمر سواء عندها، ثمّ عادت لتتّجه بحديثها إلى العقيد، «يا ابني، أريدك في موضوع خاص»، قالت له بينما تنظر إلى الفتيان المتجمّعين، وإلى زوجة الرجل. فهم العقيد الإشارة لهذا سمح للعجوز أن تقترب منه بعد أن رفضت زوجته الخروج من الغرفة. نفثت في أذنه سرًا لن يعرفه أحد في هذه الحكاية كما لن نعرفه نحن، وذلك حفاظًا على أسرار النّاس. خلال ذلك كانت الحاجّة تحرّك يدها إلى المساحة تحت مستقرّ العقيد. امتقع وجهه فور أن سرّبت السر إلى أذنيْه. وعندما لاحظت تأثير كلماتها، نهضت بصعوبة لتخرج تاركة العقيد في ذهول، وكان العجب واضحًا على وجه زوجته.

- هيّا أترككم على خير، قالت، وخرجت عائدةً إلى بيتها.

في البيت وجدت ابنها، أقصد شبح ابنها، حتى لا تحزن الحاجّة عندما تقرأ هذه الحكاية. وجدته في غرفته وقد أكله السرير، وضعت علبة السجائر بجانبه وأخرجت من صدرها صرّة فيها سبع شعرات بيضاء وقالت له بأنّ هذه المرة، غير المرة الماضية، سيتمكن فيها أن يعود قبل العيد الكبير. ومن ثم انصرفت لتحضّر الغداء وتركتنا مع ابنها.

كان الابن قد نسي اسمه، بل أخبرتني إحدى القطط[1] في بيت الحاجّة أنّها هي أيضًا نسيت اسمه، وهكذا تريحنا من إشكالية إيجاد اسم له، فالاسم كما تعرف، هو علامة الوجود وهو علامة الأنسنة ومن دونه نبقى مجرّد أجساد تخوض في الحياة خوْضَ العصافير. القط نفسه أخبرني بذلك، فهو كان له اسم، وكانت الحاجّة تناديه المبروك. هذا يعني، أنّ القط المبروك في حكايتنا هذه، أهم من الابن الهامشي، إذ كان المبروك أحد القطّين اللذين تعاركا في سابق الحكاية. كان الابن قد أشعل سيجارة جديدة وهو ينظر في سقف غرفته باحثًا عن أشكالٍ وخيالات تنسيه نسيان أهل القرية له، حتى ذلك الطفل الذي قفز في جنان البيت لم يعد يثير وجوده اهتمامه، ظنّ في البدء -كما ظننا نحن- أنّ الطفل سيشي به ويخبر

(1) هذا الإدراج العشوائي منّي قد يجعل أحد النقّاد التافهين للخروج بنظرية بأنني مسعود المدني نفسه، سأسمح بهذا الأمر، فقط لأنني عبقري ويمكن لعشوائيتي أن تكون مثلي.

أحدهم بوجوده، لهذا كانت الأيام التالية للمصادفة التي جمعتهما في باحة الحاجّة مليئة بالأحلام والخوف والرعب والترقّب لابن الحاجّة. لكن بعد ذلك، قفز الطفل مرة أخرى لينقذ الكرة، وهذه المرة لم يلتفت باتجاهه رغم معرفته بوجوده، في القفزة الثالثة قرر هو أن يخرج للباحة حتى يتمكن الطفل الصغير أن يلقي نظرة فاحصة عليه. لكن الفتى تجاهله هذه المرّة أيضًا، فتح باب بيت الحاجّة وأخذ الكرة وخرج. في القفزة الرابعة، تحدّاه إذ أمسك بالكرة، لكن الفتى الصغير وبعد أن نظر إلى الجسد الذي يمسك الكرة، مدّ يده نحو الكرة كأنّه يمدّها إلى قلب شجرة وأخذها منه وعاد منتصرًا للعب مع الأطفال الذين هاجوا في الخارج لحصولهم على الكرة مرة أخرى. لم يقفز بعدها أي طفل آخر غير ذلك الطفل، وكان ابن الحاجّة في كل مرة يحاول لفت انتباه الفتى الصغير له. حاول التحدث إليه مرة، حاول إخافته مرة أخرى، حاول تهديده، بل إنّه أمسك بالفتى وصفعه وأخبره أن لا يعود مرة أخرى وأنّه إذا رآه في باحة البيت سيقتله، أقسم أن يقتله وأراه سكّينًا تستخدمه والدته لقطع اللحم، لكن الفتى لم يحرّك ساكنا، وكان يعود كل مرة إلى البيت كأنّه كان يرى شبحًا. عندها فقط، أصبح ابن الحاجة يؤمن بأنّه خيال، وبأنّ نسخته الحقيقية لا تزال هناك، تصارع الدببة في الاتحاد السوفييتي المنهار، كما آمنت أمه. ولهذا، من الآن وصاعدًا، سنذكره بالخيال، حتى نسهّل على أنفسنا الأمر، مع الاحتفاظ بالفارق بينه وبين الغولة التي تسكن بيت الحاج إمحمّد.

15

لنترك الخيال لخيالاته، ولنتخذ القط المبروك مطية ليوصلنا للحوادث القادمة من الحكاية، إذ كان المبروك يجلس على نافذة غرفة الشبح يراقبه، وعندما ملّ منه، قفز إلى الحديقة، مرّ بين الأشجار المتشابكة إلى أن وصل إلى الجهنّمية التي صارت تهيّج بأوراقها وأزهارها. قفز إلى الجهنّمية ومن ثم قفز منها إلى الجدار، ومن الجدار صار حرًا في ساحة اللعب. ظل يمشي كأي قطٍّ آخر يجد أمنه من بني البشر في القيلولة، ظلّ يمشي حتى وصل إلى ثلاثة شبّان كانوا يقتعدون زاويةً في الحي الآمن من القرية. كان أولئك الشباب هم الظريف علي المدني والمثقّف بائع الجرائد السابق وشاب آخر كان يعمل في السوق على البرويطة، أو عجلة اليد كما يسمّيها مجمّع اللغة عندكم.

انقضّ صديقنا الظريف على القط وألقمه حجرًا، فهو كان يلقّم أحجاره الكلاب والقطط والأطفال وحتى النساء في أحيانٍ قليلة، وخصوصًا نساء بيته. بعدها عاد ضاحكًا فخورًا بفعلته إلى جليسَيْه، لنترك القط المبروك هاربًا باحثًا عن مأمنٍ من شياطين جهنّم.

– القطط يا رجل، كائنات غبية، قال علي المدني.

- أتعلم؟ على عكس ما نعتقد، فإن القطط كائنات ذكيّة... إنّها... قال المثقف.

- أرجوك، اصمت، لا أريد سماع ما ترغب بقوله.

- على راحتك، أنت الخاسر.

- إذًا يا علي، كيف هو حال مسعود؟ قال الآخر.

- مسعود؟ لم أعد أراه، يبدو أنّه ذهب إلى بيت خالته في الجبَل الأخضَر.

- اشتقنا لأحاديثه والله.

- إن أردتم رأيي، فإنّ مسعودًا قد أخطأ، قال المثقّف.

- ماذا تقول؟ لماذا لم تقل له هذا في وجهه؟

- أنا أحب قصصه، ولكنها طرابلسيّة أكثر من كونها جهنّمية.

- لم أفهم؟

- أقصد، هل تصدّق أنّ في مجتمعنا هذا، مجتمع قريتنا البسيط، يمكن أن يحدث فيه كل ما يحكيه مسعود؟ إنّ حكاياته لو انتشرت في القرية لأفسدت أخلاق الشباب.

- هل أفسدت أخلاقك؟ قال علي معترضًا.

- لا، لأنّي محصّن منها، اترك أمر الأخلاق، ما الذي ستقوله عنّا القرى المحيطة والناس في ما تبقى من الجماهيرية عندما يسمعون هذه القصص؟ هذا يعدّ تشويهًا لصورتنا ويجب المعاقبة عليه.

- هل تحوّلت، أنت أيضًا، فجأة إلى مناصر للعقيد؟

- وهل يجب أن أكون مناصرًا للعقيد حتى أرى الحقيقة؟

- الحقيقة أنّك غبيّ، وكل ما تقوله عن مسعود نابع من غيرتك منه، تعبت من الصبر على كلامك.

- إذًا ما الذي ستفعله؟ هاه؟
- تريد معرفة ما الذي سأفعله بك؟
- نعم، هيّا أخبرني.
- أنت متأكد أنّك تريد معرفة ما الذي سأفعله بك؟
- نعم متأكد، هيّا أرني، أنتظرك. ما الذي ستفعله؟
- هل أنت متأكد فعلًا؟
- متأكد مئة بالمئة.
- متأكد مئة بالمئة؟
- نعم. هيّا، سئمت منك.
- يبدو أنّك لست متأكدًا.
- لا، أنا متأكد.
- طريقة لفظك للكلمة لا يشي بكونك متأكدًا.
- بل متأكد.

وحتى لا ندخل في هذه الدوّامة مرة أخرى بعد أن أصبحت مُبْتَذَلةً، أقول إنّ الصياح ارتفع بينهما. وقفا وظلّ كل منهما كديك ينفش ريشه على الآخر، ليظهر حجمه وقوّته. ظلّا يتبادلان الأسئلة والتأكيدات، وكان متوقعًا أن يتعاركا، فقد تبادلا الإهانات دائمًا وكان مسعود الحاجز الوحيد بينهما حتى لا يتعاركان، فيهدّئ كل منهما. حاول رفيقهما الثالث أن يفصل بينهما لكن من دون جدوى، فرغم رفعه للأثقال في سوق الخضار، لم يكن قادرًا على فصل صدريْهما المتلاصقَيْن بعد أن أصابه اللعاب المتطاير صحبة الشتائم في عينه. وبعد أن توقّفت الشتائم،

أمسك عَلِيٌ بخناق المثقف بائع الجرائد، ونطحه. سقط غريمه على الأرض بينما أصابه الدُوار. كان الغريم مرميًا على الأرض بينما يحاول الظريف أن يتمسك بالحائط الذي كانوا يتكئون عليه. كان العتّال يتفرّج عليهما ويناجيهما أن يصلّيا على النبي، فلم يصلّيا عليه. حاول المثقف النهوض، كانت يده مخبّأة خلفه، وبينما يحاول الظريف أن يقف على قدميْه، ألقمه المثقف حجرًا. كان يمكنك سماع قطط الحي وكلابه وأطفاله، ومعهم أخوات علي، يزغردون فرحين بهذا الانتقام المفاجئ. لكن يا للأسف كبتت فرحتهم -التي، بالطبع لم يعرفوا سببها، فلا أحد قد شاهد العراك الصغير- صوت إطلاق نارٍ داخل القرية، صحبته بعد ذلك صياحات رجال وصرخات نساء جعلت الدامغَ والمدموغ ينسيان أمر عراكهما ليركضا صحبة العتّال إلى المكان الذي ظنّوا أنّ الرصاص جاء منه.

16

لأصارحك بأمرٍ قبل أن نكمل هذه الحكاية التي لا تريد أن تكتمل، لقد أَلِفتُكَ، ووجدتُ فيك صبرًا على ما أقوله، ولهذا أودّ أن أخبرك بأنني مللت الحكاية، ولا عجب أنّك مللتها مثلي، خصوصًا أنّها خالية من أيّ اكتشافٍ لغوي أو أدبي؛ فعندما نتحدّث عن العراك، يجب أن نظهِر القليل من الإثارة، بلَ علينا أن نتحرك في مسار الدم وأن نصنع لَه جداول يمر بها ليسقي القرية كلّها. أين الموت حتى هذه اللحظة؟ وما أدرانا إن كان صوت المسدس لم يكن للتخويف؟ ولكن علينا أن نتحرّك قدُمًا ونستمر في قصّ هذه الحكاية المملة. لو كنّا قد توقفنا عنها قبل أن ينفجر بيت الحاج إمحمّد لكان أمرًا لا بأس به، ولكن أن نتوقف الآن مع كل هذه الدراما، فهذا يعني قصور في شخصي وقصور في شخصك.

يذكّرنا هذا القصور بقصور بطلنا عيسى العربي في تحمّل مسؤوليته تجاهنا كبطلٍ للحكاية، وكرجل لديه ثأر عليه أن ينجزه، وكغازٍ يشبه أبي زيد الهلالي مقتعدًا أمام قصور تونس. أمضى بطلنا أيامه لا يُقبل على البحر ولا يخوض غماره، كان يجلس كل يوم أمامه ويشاهد تكسّر الأمواج على اليابسة والصخور مستذكرًا أيام طفولته عندما كان يصحبه أبوه إلى البحر، فيجلس الأب فوق إحدى الصخور غارسًا صنّارته في قلب البحر منتظرًا أن يكرمه

بسمكةٍ ما، بينما كان هو يلعب حوله أو يقفز منتقلًا من الصخرة إلى الماء ليثير الأعماق. تابع عيسى البَحر بكل أمزجته في أيام هروبه من المسؤولية، راودته أفكار عدّة، فكرةٌ قالت له بأنّ البحر بكامل الاتساع، يضيق على الجرح المنغرس في فؤاده، فكرةٌ أخرى لفتت انتباهه إليها أمواج البحر وصديقته الصخرة، إذ لاحظ أنّ الصخرة قد بدت أصغر بكثير مما يتذكر أنها كانت عليه في طفولته. شكك في البدءِ بما ذهب إليه عقله، فكل الأشياء تبدو ضخمة وكبيرة في زمن الطفولة، إذ إنّه لا يزال يذكر كيف كان والده يبدو كواحد من العماليق بيديه اللتين صقلهما البَحر وملحه، وكيف كان يخافه خوفًا لا يخافه من الله، وعندما كبر واشتد ساعده، بدا والده له قزمًا، كائنًا بائسًا يمضي أيامه في شرب اللاقبي ورعي الأغنام. وبهذا المنطق العجيب، إن أردَت رأيي، طرد فكرة الصخرة الذائبة في الماء، ولكنّ الفكرة ألحّت عليه، كإلحاح ذبابة، فتذكّر تجويفًا صغيرًا في الصخرة كان يستخدمه سُلّمًا لأن التجويف يقع على مستوى الماء عندما لا تلطمه الأمواج. كان ذلك التجويف في صراعٍ دائم مع أمواج البحر، حفِظَ مكانه كما حفِظَ اسمه، لكنّه لم يزره منذ سنواتٍ طويلة. ذهب ليتأكد من وجود ذلك التجويف. بحث في العلامة التي تدلّ عليه لكنه لم يجده، بحث في بقية زوايا الصخرة عن التجويف لكن من دون جدوى، جلس هناك عند الصخرة يشاهد الأمواج تحاول اكتساح الصخرة، هناك فقط تأكّد من الفكرة: في صراعهما الدائم، يفوز الماء على الحَجَر، حتى وإن بدا الحَجَر صامدًا قويًا لا يأبه بمحاولات الأمواج الهجومية،

سيظّل الزمن دائمًا، في صفِّ الأمواج ما دامت لا تتوقّف عن الارتطام بالصخر.

كيف يمكن لهذه الفلسفة أن تفيد صديقنا؟

لا أعرف. ولكن ما أعرفه أنّ بطلنا، لم يتوقّف عن الرقص على أنغامِ أمواج البَحر ذلك اليوم. لم يحتج إلى موسيقى صاخبة، ولا إلى رفاق، ليرقص فرحًا ضاحكًا بما اكتشفه. وبعد أن أعياه الرّقص، ركَض إلى قريته يبحث عن ابن عمّه، فقد كانت الحماسةُ في أشدّها، تجري في عروقه كوادٍ لم ينعَم بالماء منذ دهرٍ من الزمان فجاءه السيل يجري دفعة واحدة ليجرّ معه ما نَبَتَ من شجرٍ في قعرِ الوادي. أخبر ابن عمه باكتشافه، ورغم حماقة ذلك العملاق إلا أنّه كان منشدًّا إلى حماسة بطلنا، فجاراه في كلامه وسأله عن المطلوب.

- مسدّس، هذا هو المطلوب.

كان يعرف أنّ عمّه، والد العملاق، كان يدسّ مسدسًا يعود إلى جدِ العائلة عندما كان ضابطًا في شرطة الملك.

- هل تريد قتله يا ولد سيدي؟ لم ألّح عليك بقتل الرجل، أردت فقط أن نلقّنه درسًا.

- لا لا، لا أريد قتله، ألم تفهم؟

- ماذا؟

- الموج يذوّب الصخرة.

- لم أفهم ما ترمي إليه.

- سأخيفه فقط.
- تخيفه؟
- نعم، خطّتي أن أطلق الرصاصة في الهواء، أن أخيفه، وأن أكرر الأمر في أكثر من مناسبة حتى يجنّ وينهار. تخيّل، أطلق رصاصة اليوم، لا يعرف من أطلقها نحوه، يبحث عن غريمه، ربما لديه أعداء داخل قريته، بالتأكيد لديه أعداء، يذهب للعراك معهم، ولكن بعد أن يتشابك معهم يكتشف أنّهم ليسوا من أطلق عليه النار. أعود وأطلق النار عليه من جديد، يجنّ ويصيبه الهاجس ويبحث عن غريمه مرة أخرى. وهكذا حتى ينهار تمامًا، ما رأيك؟
- أنتَ شيطان.
- بل ذكي.
- وما أدراك أنّها ستنجح؟
- مع متهوّرٍ مجنونٍ بالقوة مثله، كيف لا تنجح؟
- وماذا إذا اكتشف أمرك؟
- سيخاف أكثر.

أخذ بطلنا السلاح، دسّه في ملابسه وانطلق إلى جهنّم لينفّذ ثأره الذي طمِح له الجميع، وظنّ أنّه لن يطمح له معهم. كان يتحسس المسدس في طريقه إلى القرية كأنّه يحمل قنبلة ذرية ستجعل القرية هباءً منثورًا. تسلل تحت شمس القيلولة مطمئنًا أن لا عين سوى عين الله تراه، وجلس داخل غابة الهِندي المقابلة لبيت العقيد. كان يمكنه أن يرى شجرة التوت التي تلطّخَ دمه عندها وتناثرت أسماكه تحتها لتنهشها الأيدي. جلس ينتظر

غريمه، كان يدرك بطريقة ما، أنّ الغريم سيخرج لقضاء حاجة، إشعال سيجارة مثلًا، لهذا ظل مقتعدًا مكانه من دون أن يتحرّك، مرّت ساعة واثنتان حتّى لمحه فوق سقفِ البيت يشعل سيجارته ويتحرّك يمنة ويسرة، نظره لا يترك بيت عائلة التشنكوي، عندها فقط وبارتعاشة في يدِه، قرر أن يطلق رصاصته ويعود هاربا إلى قريته.

كانت خطّة بطلنا ستنجح، ولكنّه لم يأخذ في الحسبان بأنّه قد أطلقَ النار على الترجمان، أخ غريمه، وأصابه في رأسه ليخرّ الترجمان قتيلًا على جدارِ بيتِ حبيبته... لنتخلص منه ومن كلمات العقيد.

17

لا يهم حكاية أمر العزاء والحزن الذي ألمّ بآل العقيد، فلا قيمة لنقل مشاعر الألم والأحزان في المعارك والحروب. ولكن يجب القول إنّ هيثم عضلات كان غاضبًا وأقسَم بالله والنبي والسيّد علي وسيدي جهنّم أن ينتقم لأخيه من الجبان الذي قتله، وبهذا أدّت مكيدة بطلنا إلى غرض معاكس لما كان يقصده، فقد آمن هيثم بأنّ قاتل أخيه ليس إلا مسعود المدني، وبما أنّ مسعود المدني يعَدّ الحمار القصير للقرية، ليس فقط لأنّه قد يرمز إلى فئة المبدعين، كما قد يظنّ عقلك القاصر، ولكن أيضًا لأنّه كان حمارًا فعلًا. فقد ظنّ أنّ بإمكانه أن ينسج من خيالاته قصصا وحكاياتٍ ستتحول يومًا إلى ديوانٍ وتاريخ للقرية تعود إليه، وتعود ممجّدة صاحبها. لكنه لم يدرك أنّ هَجومه على أطراف العراك سيجعله مطارَدًا منهم ومطرودًا من أهله، وهذا ما يحدث عادة للذين يتجرأون على ثوابت المجتمع.

فتّش هيثم عن مسعود في كل مكان، أمضى أيامه واقفًا أمام باب البيت يستجوب كل من يمر أمامه، يفتّش في أفكاره وكلماته عن أي دليل يرشده إلى قاتل أخيه. فتّش عنه تحت الأحجار وفي جيوب الناس وبين النخيل وفي طابيات الهندي، ولم يبقَ إلا حرمات البيوت ليفتّشها، وكان سيفعل ذلك لولا تدخل عقّال القرية لإقناع العقيد بأنّ ذلك عيبٌ ليس بعده عيب. وفي أحدِ تلك الأيام أخذ

منه التعب كل مأخذ، لبس غريمه ثياب الخرفان يرعى صحبة غنم آل المدني يحاول الهروب من القرية في تلك الثياب بمعيةِ عمّه الراعي، استوقف هيثم الراعي العم وظل يفحص الأغنام ليشتري أحدها للعيد الكبير. كان العم قلقًا وطلب من هيثم أن ينتظره حتى يعود بالأغنام في آخر النهار وسيبحث له عن أفضلها. لكنّ هيثم كان مصرًا بالطبع، كما يبدو الأشرار مصرّين في السينما على اتباع حدسهم في اتباع ضحاياهم، أخبره بأنّه سيشتري منه الخروف حالًا، لأنّه يريد أن يذبحه ويصدّقه باسم أخيه الشهيد. كان مسعود، في ثياب الخروف بين الأغنام، يدعو الله ألّا يراه هيثم وأن يتراجع عن رغبته الشديدة في اختيار الخروف بنفسه.

- سأدفع لك الآن، انتظر هنا، سأنادي على أخي الصغير وسأدفع لك أكثر مما تستحق. قال هيثم.

- ولكن يا هيثم، يا ترّاس، أنا حقًا في عجلة من أمري.

- ولمَ العجلة؟ الحشائش لن تهرب.

- حسنًا، ولكن دعني اختار لك أفضلها.

- لا، لا داعي لذلك، أعرف كيف أختار.

وهكذا، بدأ هيثم البحث عن ضحيّته أو أضحيته. كان قاب قوسين أو أدنى من أن يمسك بمسعود المدني، لولا اختباء مسعود بين النِعاج ولولا غثاءه غثاءً كرهه هيثم ولولا ملاحقة الكبش الكبير له بأنفه ظنًّا منه أنه نعجةً بعد تبوّله في سرواله من الخوف. كادت كلماته أن تنهي حياته، لكن غثاءه أنقذه. سيقولون ذلك عنه في المستقبل، كان سعيدًا بهذه الفكرة بينما يقوده عمّه بعيدًا عن هيثم الذي لم تُعجبه الخرفان كُلّها.

18

كانت الحاجّة مُرهقة من الرحلات التي قطعتها بين القرية وبيت الشيخ الذي لا يفلح. فبعد أن جمعت له كومة من شعرِ العقيد، أخبرها الشيخ بأنّ الصلّاح كانوا في إجازة في بلاد الواق واق وطلب منها أن تشتري له عسلًا مخلوطًا باللوز حتى يمكنه أن يستدعيهم من الإجازة. تعجّبت من أمر العسل فقالت له:

- هذه أول مرة أعرف أنّهم يحبون العسل.

- نعم يا حاجّة، إنّه ألذ الطعام عندهم، ولا يمكنهم تناوله إلا بتحضيره بطريقة معينة طويلة وصعبة، قال لها الشيخ.

اشترت له العسل، وجاءته بعد أسبوع، أخبرها عندها أنّ الصالح الذي يعمل على قضيّتها قد أصابته وعكة صحيّة، ولكنه يعِدها بأنّ قضيّتها ستكون أول قضيّة على جدوله عندما يشفى، وطلب منها أن تحضر له ذنَب بوبريص وكيس شاي، أحسّت الحاجّة بأنّها دخلت في معترك البيروقراطيّة الحكوميّة التي كانت تسمع بها من زوجها الشهيد الذي مات في معركة فتح عمرو بن العاص لطرابلس غرب. كانت في كل مرة تخرج من عنده تعاهد نفسها ألّا تعود، ولكن بمجرّد أن تدخل منزلها وتجد ابنها قد فقد جزءًا من جسده متحولًا إلى خيالٍ حقيقيٍّ، كانت تسارع لتنفّذ كل طلباته. جرَّبت كل شيء مع الشيخ. جاءته بما يطلبه كل مرّة.

حتى إنها، عندما أخبرها أنّ الشَّعر لن ينفع وأنّ عليها أن تحضر أظافر الرجل، تحايلت على بيت العقيد وسرقت أظافره. ثم بذلت جهودًا كبيرة لتتمكن من سرقة إحدى صوره وأحد سراويله الداخلية وفرشاة أسنانه، بل سرقت أسنانه الصناعية نفسها، وكادت تسرق البيت بأكمله. كانت تفعل كلّ هذا تنفيذًا لطلبات الشيخ، لكن كل ذلك لم ينفع بالطبع. حتى جاء ذلك اليوم الذي كاد فيه شبح ابنها يختفي تمامًا إذ لم يبقَ إلا رأسه. عندها قررت أن تجرّب آخر الحِيَل التي في جيب الشيخ، دخلت على الشيخ وتوسّلت إليه أن يجد حلًا، أخبرها بأنّ الصالح حارَ مع العقيد ولم يجد طريقًا تدلّه إليه ولم يتمكّن منه، فاقترح الصالح على الشيخ حيلةً كان يستحي في كل مرة من ذكرها للحاجّة. وأخبرها أن هذه آخر الحيَل التي في جيبه.

– ماذا اقترح؟ قل لي، أنا في عرضك يا سيدي الشيخ، ولدي يشعر بالبرد في بلاد الكُفّار.

– تطلبين الحل يا حاجّة.

– نعم؟ ما هو؟

– الحل هُو... الحل هُو، أستغفر الله، الحل هُو.

– أرجوك أخبرني هيّا.

– أنتِ تعرفين حِجَاب جلب الحبيب.

– أستغفر الله، هل تريدني بعد هذا العُمر أن أجلب العقيد ليحبني؟ هل جننت؟ ماذا ستقول عنّي نساء الحي؟ بعد ما شاب دخل الكُتّاب، أتزوج رجلًا أصغر منّي بعشرين عامًا؟

- لا يا حاجّة، الأمر لا يتعلّق بكِ.

- أتقصد أن أزوّج ابنة العقيد لابني؟ البنت بايرة ولها وجه يشبه البوبريص.

- ولا هذه يا حاجّة.

- إذًا، ما هو الحل؟ هيّا أفلتها.

- الحل أن يقع العقيد، ولا حول ولا قوة إلا بالله، في حب ابنكِ[1].

لطمت الحاجّة وناحت، ولكنّها لم تنسَ أن تضرب الرجل بعكّازها وتشتمه. صعقها اقتراحه وكاد أن يرديها قتيلة، لكنها لم تلبث أن هدأت بعد أن ذكّرها الرجل بأنّ هذه هي الوسيلة الوحيدة ليعود ابنها إليها وليعيش حرًّا في القرية. طلبت منه أن يتركها لتفكّر في الأمر.

- يومان فقط يا حاجّة، وإلّا ينتهي العرض.

أخبرها، وأضاف:

- هذه المرة سيكون كل شيء على حسابي، قال لها.

- وهل تظنني أدفع من جيبي بعد كل هذا؟ قالت واندفعت عائدة إلى القرية.

في طريقها قابلت الحاج إمحمّد الذي اختار المقابر مسكنًا له. سلّمت عليه ولم تنس أن تذكّره بأن لا يصدّق كل ما يقوله له أمين

(1) أعرف، كان واضحًا منذ البداية أننا سنُدخِل المثليّة الجنسيّة في الحكاية عملاً بعادات الغربيين في زمننا هذا.

الجمعية. ومن ثمّ تحركت بين بيوت القرية هاربة من الكلمات التي ألقاها الشيخ في أذنيها حتى وصلت إلى بيتها لتواجه تلك الكلمات وحدها. شبح ابنها لم يبق منه إلا فروة الرأس تقبع على السرير، جلست عند السرير وظلت تغني له غناءً يختلط بالبكاء من الهم الذي أصابها. لم تكن تعلم بأنّ النهاية ستكون كما تراها الآن، صلّت الاستخارة وفي اليوم التالي قررت أنّ عليها أن تنقذ ابنها على كل حال.

19

اشتعل العراك مجددًا بين بيتَي العقيد والتشنكوي بعد هدوءٍ نسبي. هذه المرة اشتعلت الحوادث بعد أن مازح ابنُ جمال هيثمَ بأنّ مسعود الحكواتي قد هرب في ثياب الأغنام من بين عينيه. وقال له إنّه لا يبدو ذكيًا كما تبدو عليه القوة. لم يحتمل هيثم هذه الإهانة. كان يعرف طبعًا بأنّه ليس ذكيًا أبدًا، فقد فشل في الدراسة منذ الفصل الأول الابتدائي. ذكره ابنُ جمال بأنّه كان أول الفتيان الذين يفشلون في المرور من الفصل الأول إلى الفصل الثاني في تاريخ البلاد بأكملها، فأغضبه ذلك وضربه، واشتعلت بينهما حرب كلامية. قال هيثم لابن جمال بأنّ الفضيحة لم تكن لتحدث لو حفظت أمّه وأخته فرجيْهما ومكانهما مثل باقي نساء القرية، اتهام ردّه عليه ابن جمال بأنّ المرحوم أخوه هو من كان عليه أن يحفظ ستار العائلة وأن لا يكشفه، وبأنّ العقاب جاءه من الله. نتيجة التهجّمات الكلامية تشابكا وتبادلا اللكمات، وعرف جنود جمال بما يحصل فهبّوا إلى أرض المعركة وتجمعوا كتلةً على جسدِ هيثم يلكمونه ويركلونه بأقدامهم. صيحاتهم التي ارتفعت في القرية وصلت إلى أسماع أنصار العقيد فهبّوا لدفع العدو الغاشم. تبادل الطرفان أكياس القمامة التي خزّنوها للطوارئ وأشعلوا فيها النار، تطايرت قذائف المولوتوف في كل مكان

حتى إنّها أحرقت غابة الهندي المقابلة لبيت العقيد، وانطلق كلب العقيد ليتشابك مع الكلاب التي جمّعها جمال. تَسَلّل أحد أنصار التشنكوي ليضع ما أخبرنا به في بداية الحكاية في الموقع الذي أخبرنا به من جسد الكلب، أدّى إلى تحوّله إلى جيفة. أخذ العقيد بلبِّ جمال، في أول التحام جسدي بينهما، وحاول خنقه؛ إلا أنّ جمال دغدغه فانهار الرجل ضاحكا، فقد كان منذ أيام تشاد يعرف عنه ضعف خصره اتجاه الدغدغة.

تشابكت زوجة جمال وزوجة العقيد أيضًا، توقّف الرجال ليشاهدوا النساء يتعاركن. في سابقة أخرى في تاريخ العراك. اتكأ الأعداء على أكفّ بعضهم البعض وظلّوا يشاهدون النساء وهنّ يتعاركن، هيثم يتكئ على كتفِ ابن جمال ويشجّع أمّه التي أمسكت بشعر خيرية وتحكّمت بحركاتها، صرخت خيرية متلفّظةً بمسبة لا يجوز لنا قولها هنا، حفاظًا على الأخلاق. لكن يمكن القول إنّ المسبة كانت تتعلّق بتاريخ جنسي مزوّر لزوجة العقيد. ضحك الرجال، فهم نادرًا ما يسمعون امرأةً، عدا الحاجّة مبروكة، تسبّ بهذه الصراحة. شعر ابن جمال، وجمال أيضًا، بالفخر والاعتزاز من جرأة خيرية. وفي خضّم هذه الضحكات تمكّنت خيرية من تمزيق قفطان زوجة العقيد ليظهر ثديَاها للعيان، فأدار الرجال أعينهم واستغفروا الله. ظهور النهود جعلهم يعودون إلى وعيهم، وينادون النساء بالعودة إلى البيوت، ليعودوا هم إلى العراك.

ولأننا الآن أصبحنا نجدّف ونلقي بالحكاية في مزبلة التاريخ، لماذا علينا أن نقف هنا؟ يمكنني الآن أن أخبرك بأنّ عين ابن جمال قد فُقئت وذلك بعد أن أدخَل هيثم أصابعه فيها، إذ شكّ أنّه كان الوحيد من بين الرجال الذي رأى ثديَيّ أمّه. حشر هيثم إصبعيْه السبابة والإبهام في العين وجذبها كأنّه ينزع حلزونة من قوقعتها، لم يتوقف عن ذلك لكنّه حاول أن يأكلها قبل أن تقع على التراب وتطأ عليها أقدام ابن جمال نفسه الذي كان يصرخ من الألم محاولًا أن يوقف تدفق الدم من عينه، لتذهب العين غداءً للحشرات في الأيام اللاحقة. أحد شيعة جمال مزّق بطن أحد أبناء القرية المتفرجّين بعد أن كان الشاب يهتف بفوز العقيد، أمّا الحاجّة مبروكة فقد كانت تقذف من باب بيتها بالأحجار على الجميع ولم تفرّق بين عدو وصديق، إذ إن إحدى أحجارها التي رمتها في اتجاه جمال، أصابت رأس العقيد. باختصار، كان بإمكانك رسم لوحة كاريكاتورية لما حدث في ذلك اليوم الدموي الذي لم يتوقّف إلا بعد أن جاءت الأخبار للجميع، بأنّ الجمعية توزّع الحليب لأول مرة منذ أسبوعيْن.

تسابق الجمع إلى الجمعية، احترموا الطابور، فنحن نعيش في دولة قانون ومؤسسات، فرّقوا بين طابور النساء وطابور الرجال بالطبع، احترامًا أيضًا للعادات والتقاليد. أخذ البعض منهم الحليب وعاد إلى بيته يداوي جراحه ويعدّ خسائره ويستلذ بطعم الحليب. إلا أنّ البعض الآخر، ولأكون أكثر صراحة فأنا أقصد أنّ الحاجّة مبروكة رفضت أخذ الحليب. كانت مشكلتها أنّ الحليب

ليس كامل الدسّم، وأنّ الحليب الذي وزّعه الأمين هو منزوع الدّسم فقط، وبهذا نشبت معركة كلامية بينها وبين أمين الجمعية، اتهمته فيها بأنّه يدسّ الحليب كامل الدّسم في المخزن ليبيعه في السوق السوداء.

لم يتوقف العراك طويلًا، ففي المساء تجدّد ليمتدّ إلى بيت المدني بعد أن دبّرَ أبناء العقيد مكيدة لبيت المدني، ضاربين بأوامر أبيهم عرض الحائط. هاجموا بيت المدني بأنبوب الغاز الوحيد المتبقي في بيتهم، مخاطرين بالبقاء جوعى من دون طعام لأيام، فأصابت الأنبوبة غرفة الذكور التي كان يعيش فيها مسعود قبل تهجيره من قريته، وتشابك آل المدني وآل العقيد الذين انضمّ لهم شيعة جمال، ليتحوّل أعداء الصباح لحلفاء الليل. سار الدم في القرية وانتشر العراك بين كل من يقطنها، فمن كان لديه ثأر قديم عند أحدهم خرج ليطلبه ليلتها، إذ يُحكى أنّ أحدهم تعارك مع صديق له فقط لأنّه كان دائمًا يغشّ في لعبة الكارطة، كان يتناسى الأمر كل ليلة يعود فيها إلى البيت، ولكن هذه الليلة استثنائية، فقد سار الجنون في القرية من دون توقّف. إخوة يعيشون في آخر القرية بعيدًا عن العراك في سعادة وهناء تحاربوا بعد أن عادت ذكرى ميراث أبيهم، فقد اتهم أحد الأخوة الأخ الكبير بسرقة متر واحد من أرضه بحجّة أنّ شجرة الزيتون التي تقع في المنتصف تعود للكبير، رغم أنّ كلًا منهما حصل على أكثر من حقّه لأنهما اتفقا أنّ أخواتهما لا يحق لهن الميراث، أحرق الأخ الأصغر شجرة الزيتون وشبّ عراك على الميراث

من جديد. تفرّق آل المدني وأخذ هيثم أغنامهم غنيمة عقابًا لهم على الخدعة التي أجروها عليه. لم يستكن أحدٌ في القرية وكادوا يحرقونها عن بكرة أبيها عدا صورة الأخ القائد التي ظلّت تتصدر مدخلها، ولولا أذان الفجر لانتهت هذه الحكاية هنا.

20

عاد الحاج إمحمّد إلى القرية صباح اليوم التالي وأدهشه الجنون الذي طالها، فقد أمكنه في الليلة الماضية أن يرى نيران الجحيم تشتعل في القرية وكادت تصل إلى واحة النخيل. وجَد أول ما وجَد الجمعية متفحّمة يغلّفها السواد. كان الأمين منهكًا يجلس بالقرب منها بينما أبناؤه يحاولون البحث عن أي شيء يمكن إنقاذه داخلها. راود الحاج شيء من السرور الذي حاول كبحه، فهذا المكان، الصرح الذي بنته الدولة ليكون مكانًا للعدل وصرحًا اشتراكيًا عظيمًا يجسّد روح الجماهيرية، والذي تحوّل على يدِ أمين الجمعية إلى مزرعة لا يأكل منها إلا من رضي هو عنه، آل به العراك إلى الهلاك. جالَسه الحاج وظلّ صحبته يعزّيه، أراد أيضًا أن يقول له إنّه يمكنه الآن أن يشتعل غضبًا مثله من هذا العراك إلّا أنّه سكَت. لم يتحدّث إليه أمين الجمعية إلا بأمريْن، قال له بأنّه سيشكو إلى الشرطة وسينظّف القرية من كل هذا العبث الذي أفسد مصالح الناس، وأخبره أيضًا بأنّه يشك في الحاجّة مبروكة فهي دائمًا تهدّده، وبالأمس عندما كان يوزّع الحليب أثارت مشكلة بينه وبين الناس.

- إذًا هل تظن أن الحاجّة هي من أحرقت الجمعية؟.
- لا أظن فقط يا حاج، أنا متأكد. هل تعلم، وصلتني أخبار من

مصدر موثوق لا أريد كشفه الآن، تقول بأنّ ولدها لا يزال يعيش معها، لا كما تدّعي أنّه في روسيا.

ابتسم الحاج. لم يكن عند السيد محمود شايًا هذه المرة، ففضّل الحاج البحث عنه، ظلّ لأيام يعيش من دونه حتى ظنّ أنّه شُفيَ من إدمانه، ولم يرجع إلى القرية قبل اليوم إلا مرّة واحدة حاول فيها إقناع الغول داخل بيته بالخروج، إلا أنّ الغول أبى الخروج، بل أبى حتى الرّد على طلب الحاج، وهو أمر عائد إلى قلّةِ أدبِ جنسه وعدم احترامهم لمن يخاطبهم؛ فتردّد صدى صوته في البيت من دون جدوى. تحرّك الحاج إلى الطريق المؤديّة إلى بيت الفريقَيْن المتحاربيْن، كانت النار تأكل مما تبقى من غابة الهندي على يمينه، وبدا له الخراب عظيمًا، إذ لم يسلم إلا منزل الأبلة سعاد من الأذى. كان بيتها أفضل البيوت حالًا إذ لم تنكسر فيه إلا نافذة واحدة وهي نافذة غرفة نومها، وقد كسرها أحد الشباب الخمسينيين الذين لم يتزوجوا ظنًّا منه أنّه سيتمكن أخيرًا من رؤيتها عارية. أما بقية البيوت فقد تلطّخت حيطانها بالدماء والقمامة واحترقت جوانبها وخُلِعت أبوابها واحترقت أشجارها. كان الحاج يمر بين الخراب وحالة من السكون والهدوء تراوده. الآن، سيعرف أهل القرية أنّ العراك ليس الحل أبدًا.

مرّ الحاج إمحمّد من أمام المسجد، وعندما وجد الخيام مرصوفة في ساحته، اكتشف تحوّل الكثيرين من سكّان القرية إلى لاجئين، اكتشف أنّ بعض العائلات قد تركت منازلها واتجهت إلى أقاربها في القرى القريبة، سأل عن بعضهم فأخبروه بأنّهم

هاجروا إلى المدينة. أحزنه ذلك، كيف لا، وقد ردّه ذلك إلى أيام عراكه مع حسن الرومي، إذ فقدت القرية نصف سكّانها لصالح المدينة. في ذلك العراك كان الكثيرون من البدو قد وقفوا على أعتاب طرابلس ينتظرون من الملك أن يُدخلهم إلى شققها من دون جدوى، فالتهمت رمال حي الأكواخ الفقراء منهم. أحسّ الحاج عندها بالمسؤولية التي تغاضى عنها بحثًا عن الشاي، كان عليه أن يصلح بين الفريقيْن منذ زمن طويل قبل أن ينتشر العراك بين بيوت القرية أجمعين، والآن عليه أن يعود إلى مهمته. اجتمع مع شيوخ ورجال يثق في حكمتهم، حاول مرارًا أن ينسى أمر الشاي الذي ظلّ يلوح في فكره، فقد كان معيبًا أن يجلسوا في اجتماعٍ من دون أن تدور كؤوس الرحيق الأسود لتشحذ هممهم. لكنّه انتصر على الهوَس ليصل الجمع إلى قرارٍ حقيقي بفضّ النزاع بأي تكلفة كانت. عليهم أن يصلحوا أولًا بين الفريقيْن، وإذا رفضوا كل محاولات الصلح، يذهب وفدٌ منهم إلى القيادة ويطلبون اللقاء بالقائد ليحلّ المشكلة.

– كيف سنلفت انتباه القائد؟ أعرف أنّه لا يقابل أيا كان. قال أحدهم.

– سيكون الأمر صادمًا أعرف، ولكن طيلة مكوثي في المقبرة تأمّلت مسألة هذا العراك وكيف يمكننا إيقافه. وأخاف أننا لن نجد إلا طريقة واحدة لذلك، وهي أن نحرق صورة القائد في مدخل القرية، ما رأيكم في ذلك؟ ألم تروا أنّه مهما تمدد العراك في جهنّم لم يمس صورته بسوءٍ أبدًا، قال الحاج.

- أستغفر الله العظيم.

تكرر الاستغفار كأنّ الحاج أتى بكبيرة من الكبائر. بالطبع جاء بكبيرة، فالفريقان رغم كل الخراب الذي أتوا به إلى القرية لم يجرؤوا على الانتقاص من شخص صورة القائد المقدسة ولا من مكانها المخصّص لها في القرية منذ الإعلان الأول لسلطة الشعب. وصل دمار العراك إلى المسجد وخلوة القرآن والمدرسة والجِنان والحدائق، بل أرهق الأرواح واستنزف الدماء، ولكن صورة القائد كانت شاهدة على قدسيته وعلى التزام الجماهير بسلطة الشعب، فما العراك إلا تعبير حقيقي على الأرض عن سلطة الشعب.

21

ما لم تكن تعلمه الحاجّة أنّ ابنها لم يكن في طورِ الاختفاء جسديًا، وإلا لكنّا نحكي حكاية غرائبية، ولكن ما حدث كان أنّها فقدت اتصالها به، فكما تخيّلت في بداية حكايتنا أنّه كان مسافرًا إلى روسيا ليصطاد الدب، ظنّت أنّ خياله أو شبحه، كما تحب أن تسمّيه، كان في طور الاختفاء. وفي الحقيقة، كان الخيال حاضرا جسديًا في بيتها يصنع ما يصنعه دائمًا، مراقبة القطط ومراقبة مرور الوقت ومراقبة الأطفال. في الفراغ الذي لم نسدّه من القصة كان قد صادق الطفل الذي يقفز لالتقاط الكرة، بدأ الطفل يمرر له الكرة ليعيدها إليه، هذا كان حدّ صداقتهما. أحيانًا أخرى كان الخيال بمجرّد أن يرى الكرة، وقبل أن تسقط، يجري ليفتح الباب للطفل الصغير، ثمّ يغمزه. أحبّ فكرة كونه شبحًا، وأحبّ الفتى فكرة صداقته لشبح، بل كان الخيَال ابن الحاجّة مبروكة يرمي بالكرة عند سقوطها في الباحة، فقط ليضيف أجواء غرائبية وعجائبية في عقول الأطفال، فليأخذوا ذلك راحة لهم من العراك الذي كان له، بالطبع، التأثير الكبير في حياتهم وقصصهم عن العالم الذي يعيشونه. امتدّ العراك إلى المدرسة بين الأطفال، إذ شهدت المدرسة يومًا أكبر غزوة بين الأطفال، بدأت بلعبة بين طفلَيْن أحدهما لبس شخصية التشنكوي والآخر شخصية العقيد،

وكاد أحدهما أن يفقأ عين الآخر. تضاحكا وأرادا أن يذهب كل منهما إلى حال سبيله، لكن ما جعل الغزوة تشتعل بين الأطفال هو رؤية ابن العقيد لهذه التمثيلية وغضبه منها. ما فائدة ذلك في قصة حياة الخيال؟ في الحقيقة لا فائدة، اعتبر ذلك استطرادًا لا طائل منه.

في سابقة لم تحدث له في حياته، بدأت الثقة تنتاب الخَيال، فبعد أن تأكد من أنّ أمّه لم تعد تراه، أحسّ بأن الوقت قد جاء ليخرج إلى القرية، وصل إلى فكرة مفادها أنّ لا أحد غير الأطفال والحيوانات في القرية باستطاعته رؤيته ولهذا يمكنه أن يتحرك بحريّة، فقرر أن ينتظر خروج والدته إلى الشيخ ليجرّب حظّه. قرّر أنّ الصباح الباكر حيث لا أطفال يلعبون في السّاحة المقابلة لبيتهم، سيكون وقتًا جيدًا لرؤية القرية من جديد، جهّز نفسه جيدًا، جلس مع والدته التي لم تعد ترى منه إلا الأشياء التي يمسكها، أفطَر جيدًا وانتظرها في باحةِ المنزل ليراها تخرج حاملة همّه إلى الشيخ. لم تكن قد أخبرته بأي شيء عمّا وصلت إليه مع الشيخ بعد فشل المحاولات كلّها، هو أيضًا لم يجدِ الحاجة ليسألها، فقد أعجبه حاله الجديد بعد أن يئس منه. وفي نفسه، لم يرغب أن تنجح محاولاتها، لم يخبرها بذلك بالطبع، أبقى الأمر سرًّا بينه وبين القط المبروك[1]، وهو من أخبرني بذلك. خرج الخيال إلى الساحة، جلس عند الشجرة المتهاوية أول الأمر وانتظر أن يمرّ

(1) هذه المرّة الثانية التي أشير فيها إلى إمكانية ربط هُويّتي بهُوية مسعود المدني، فانتبه.

إنسانٌ بالقرب منه. كان متوتّرًا في البدء إلا أنّ روعه قد هدأ عندما مرّ أمامه الحاج إمحمّد الذي كان يحدّث نفسه مطأطئ الرأس، لم يلتفت الحاج إليه، ففرح لكنّ فرحته لم تدم، إذ حدّثته نفسه بأنّ الحاج لم يره فقط لأنّه لم يلفت انتباهه، كان واضحًا من حركة الحاج في المكان أنّ همّه كان في مكان آخر، في زمن آخر وفي قضية أخرى.

وحتّى لا نبقى كثيرًا مع هذه الشخصية التافهة، فلنقل إنّ الخيّال لمَح جسد هيثم عضلات وهو يطأ الشارع، فخفق قلبه.

22

أمّا الحكواتي مسعود، والذي تركناه مهجَّرا من القرية، فقد أمضى زمنًا يتجوّل في المدينة يبحث عن أصدقاء يسمعون قصصه. تحصّل على عمل في مقهى فظل يلحّ على زملائه في المقهى أن يسمعوا حكاياته التي جاء بها من القرية. لكن لم يهتم أحد لحكاياته، لم توّلد عندهم أية لذّة، ولم تجعلهم يريدون معرفة المزيد من خفايا بيوت جهنّم. صار مع الوقت، بعد استمتاعه بالمدينة وأجوائها ينتهي من عمله في المقهى ويمشي متسوّلا أذنًا تنصت لما قد يقوله. كان ينادي المشاة أن يقفوا، لا ليعطوه مالًا، بل ليسمعوا منه زخم الحكايات التي تدور في رأسه. لم يفكّر طبعًا في أن يكتب الحكايات ويرسلها إلى الجرائد، إذ كانت الحكاية تختفي بمجرد أن يتلفظ بها لسانه. كان يقف أحدهم له وبمجرّد أن يبدأ في القص، يملّ الرجل ويخبره بأنّه على عجلة من أمره ولا يمانع بأن يعطيه مالًا كان يرفضه. في الليل، في فراشه، حاول أن يتخيّل المشاكسين متحلقين حوله منسجمين مع حكاياته. لكنّهم كانوا يتبخّرون أمام عينيه، فيركن إلى البكاء، كان يبكي كطفل فقد أمّه. جاهد نفسه ألّا تحنّ إلى القرية وألّا يحنّ إليها لكنه كان يخسر معركة الحنين كل ليلة.

هكذا، قرر أن يعود إلى القرية. طيلة الطريق كان يعيد حكاياته في عقله ويرسم في عقله مشهد أصدقائه وهم يضحكون أو يتابعون كلماته بأعينهم المليئة بالتعجّب والتقدير واللذة. يرى نفسه يتوسّطهم كالبدر المنير وسط النجوم، ساعدته خيالاته في تمرير الوقت، حتى وجد نفسه على عتبات القرية، دخَلها متجاهلًا الإحساس بالخطر والخوف الذي خلّفه، وتجاهل مطاردات هيثم وابن التشنكوي له، بل كان مستعدا أن يحتضنهما ويقبّل كل منهما على رأسه إن شاهدهما. بدت القرية له في البداية غريبة، مخيفة، مثقلة بالدخان ولون السواد. لم يصله أي خبر منها، لم يعرف بأنّ العراك قد كبر وتغذّى على أفئدة أهلها وأصبحوا جميعا منخرطين فيه. تخطّى بيت الأبلة سعاد، شاهد هيثم عضلات يخرج من باب البيت، ارتعش... حاول التحكم بيديه.

23

بطلنا، الذي لا أعرف حقيقة، لماذا اخترناه بطلًا، فهو لا يحضر في هذه الحكاية إلا قليلًا، ولا يبدو أنّ له دور محوري أهم من دور بقية الشخصيات، كان سيكون بطلًا مميزًا في بداية الحكاية لو لم يخلص إلى العنف. لكن، وبعد أن تورّط في العراك، لا حاجة ليكون البطل. ولكن لأنني كسول، سنبقي عليه، ربما ليصل البعض إلى نظرية البطل الهامشي، البطل الذي لم يفعل شيئًا فيه بطولة، وبطولته تقع في خياله وحده. وهذا ما كان يجري مع بطلنا بعد أن أطلق ناره ليخيف من ظنّه غريمه، أمضى أيامًا أمام البحر سعيدًا جاهلًا بما استجدّ من الأخبار، لم يصله أي خبر من قريته ولا من أبناء عمومته. أمضى أيامه فرحًا بإنجازه يستعد للضربة الثانية. كان يتأمّل الموج أمامه يضرب الصخرة، ينسحبُ، يضربها، ينسحبُ، ثم يضربها مرة أخرى.

في صباح أحد الأيام وبينما كان يتأمل الشمس وهي تعتلي السماء وتلتحم بالبحر، قرر بطلنا أن يهاجم غريمه مرّة أخرى، حمل سلاحه وانطلق متسللا كالعادة إلى جهنّم، عندما وصل إلى القرية اكتشف أنّ غابة الهندي التي حمته في المرة الأولى قد أكلتها النار. حاول البحث عن مكانٍ للاختباء، لكنّ خروج عدوّه من باب البيت لم يمنحه الوقت الكافي. وجد نفسه يصوّب

مسدسه تجاهه، أمّا هيثم عضلات، العدو الغول، فقد كان مشغولا بالالتفات يمنة ويسرة؛ كان يصرخ في شابيْن أحدهما واقف في مدخل القرية والآخر جالس بالقرب من شجرة منهارة، هما الحكواتي مسعود والخيال ابن الحاجّة. توتّر بطلنا ولم يعرف ما الذي يمكنه فعله الآن في حضور شهود، وهو مكشوف كحلوى منزوعة الغطاء في نظر شيخ مهووس بشعور النساء. ركض هيثم عضلات إلى غريمه الأول صارخًا في الجالس بالقرب من جذع الشجرة ألاّ يتحرّك وإلا قتله. أمسك العدو بمسعود المدني، فريسته الأولى، وظل يضربه. كان مشهد الفريسة، بالنسبة إلى بطلنا، وهي تدع الوحش يفترسها عجيبًا لم يرَ مثيله، فقد كان الحكواتي ينادي هيثم طالبًا منه مزيدًا من الضرب، يخبره بأنّه يحبه، وبأنّه اشتاق إليه. كان مسعود يبكي فرحا كأنّه يرى حبيبا لا غريما يبرحه ضربًا. قرر بطلنا أن ينقذ الضحية من الوحش بعد أن تسللت إلى عقله مشاهد ضربه له، أطلق النار صوبه. وهكذا، كما كان متوقعا منذ بداية هذه الحكاية، اخترقت الرصاصة صدر هيثم وقتلته. ولكن هذه المرة، كان بطلنا واقفا يشاهد ضحيته تسقط ميّتة.

24

انتصر بطلنا أخيرًا، وهذا ما يجعلنا نشكّ في كونه بطل، فكيف يمكن للبطلِ أن ينتقم؟ ربما يكون صورةً للبطلِ الضدِّ، أو البطل المزيّف، أيَ البطل الذي ليس له علاقة بالبطولةَ بمفهومها التقليدي، أين هو من عنترة ابن شدّاد؟ أين هو من القائد البطل معمّر أبومنيار القذّافي؟ وعلى سيرة القائد، بعد أن قتَل عيسى هيثمًا خَرَج ابن التشنكوي -الذي كان يشاهد موت غريمه من برجِ المراقبة في بيتهم-، ركَضَ نحو بطلنا ليحتضنه ومن ثمّ كبّرَ ونادى على شيعة أبيه الذين غاروا على بيتِ العقيد فيلجوا الديار ليأسروا العقيد للمرّة الثانية في حياته - بعد أسره في تشاد- صحبة أبنائه ومن تبقى من حزبه ويربطوهم بشجرة التوت. أعلن جمال في خطبة عصماء نصره على العقيد وتحرير جهنّم من الرجعيين وعملاء الاستعمار والإرهابيين، كُلّ هذا والنّاس في القرية يهتفون بروح بطلنا الذي كان منتشيًا، دون أن يدري، بحالة النّصر، ولم يعد له رشده بعد. كان السيد محمود أمين الجمعيّة يقف بجانب جمال في البلكونة فاستغلّ الفرصة ليعلن للنّاس أنّهم أخيرًا سينعتقون من غلال الجمعية التي حُرِقَت، إذ سيفتتح أوّل دكّانة في القريّة منذ عقد من الزمان، وبهذه المناسبة السعيدة سيسمّي الدكّانة «العَربِي» تكريمًا للبطِل الذي أنهى العراك

المأساوي. هتف النّاس ثلاث مرّات فرحين بالأخبار السعيدة، لم تكن الحاجّة مبروكة في القريّة حتّى تشي بنبوءتها المشهورة في ضحد كلّ ما يقوله أمين الجمعيّة.

- ويا شعبَ جهنّم، أبشّركم أيضًا، بأنّنا تحصلّنا على موافقة لتغيير اسم شعبيّتنا إلى شعبيّة الجنّة. فافرحوا.

صاح الأمين، ففرح النّاس، «بل أقول لكم إننا سنسمّيها جنّة العربي»، أضاف الأمين، فهلل الرجال وزغردت النساء ورقصت الأبلة سعاد من شرفتها ورقصت معها ألباب الشباب الذين تركوا الأمين يصيح كما يشاء متأملّين في جمال المرأة، لتكون المرأة هُنَا في هذه الحكاية هي المنتصر ولا عجَب فالرومان رمزوا لآلهة النّصر عندهم بالنساء. تركت شيعة جمال الأسرى تحت شجرة التوت وعزموا كلّ رجال القرية على البوخة احتفالًا بالنّصر، بل أشاع المشاكسون بعد ذلك بزمن بأنّ جمال أتى بمئة عاهرة من شتّى أنحاء الجماهيرية ليرقصن ويحتفلن مع الشباب ويلعبن معهنّ اللبّيدة. كل ذلك على شرف بطلنا بالطبع. أمّا الحاج إمحمّد فقد شرّفه أمين الجمعية بحمل لقبِ صانع الشاي في ذاك الاحتفال فكان يشرب نصف ما يصنع ويوزّع البقيّة على أهل القرية المحتفلين.

أمّا بطلنا فقد اجتمع به كبار القوم في مربوعة جمال وأرادوا تنصيبه أمينًا عليهم. حلف له الحاج إمحمّد أن يأخذ بيته. تدخّل أمين الجمعيّة قائلًا:

- ولكن يا حاج، في بيتك غول.

- لن يصعب الغول على من هزم هيثم عضلات، مرعب الغيلان وقاتل الحملان. قال الحاج إمحمّد.

- عليّ الطلاق لن يسكن العَربي إلا عند آل المدني وسأزوّجه ابنتي شاء أم أبى.

قال أحد الإخوان من آل المدني، وهو والد مسعود إذ أراد أن يخرج من العار الذي جلبه له ولده. وبالطبّع وافق الجمع فلم يشأ أحد أن يحنث الرجّل باليمين ويطلّق زوجته خصوصًا أنّهم كانوا يعرفون بأنّ لزوجته يمين طلاق أخيرٍ معه فقد طلّقها قبل ذلك مرّتيْن. إحداهما بسبب مسعود جالبَ العار الذي كان في تلك الساعةِ يبكي جثةَ هيثم التي ظلّت ملقيّة لساعات في الشّارع يمسك بيد الميّت ويلقي بها على وجهه وينادِيه «بالله عليك يا هيثم، زدني ضربًا، أنا تبت».

- يا جماعة أنا لستُ بطلًا. قال بطلنا في تواضع مزيّف.

- بل أنت بطل، وسأضع صورتك بدل صورة القائد التي حرقتها. قال الحاج إمحمّد.

- أستغفر الله العليّ العظيم.

كان واضحًا أنّ الحاج إمحمّد قد حوّله شرب الشّاي بكميّات ضخمة إلى رجلٍ آخرٍ، فمن صفحات قليلة كان يبحث عن الصلح وصار الآن في لَحظةٍ واحدة يسبّ العقيد ويعدد مثالبه بل ويعاود تطاوله على القائد، وهو تغيّر عجيبٌ سريع في شخصية روائية مثله قد يكوّن إحدى الأخطاء المنطقية في هذه الحكاية. ولكن يُشفع له أنّ هذه المرة لم تكن المرة الأولى التي يتحوّل فيها فجأة في حياته

فقد كان يحلف برأس الملك إدريس رحمه الله صباح الفاتح من سبتمبر 1969 وبعد أن سمع بالثورة التي قادها القائد صار يسبّ الملك ويعدد مثالبه. المهمّ، ما علينا من الحاج إمحمّد، فالرجل يعدّ أكبر الخاسرين في هذه الحكاية، أكثر حتى من العقيد الذي خسر العراك كما خسر ابنَيْن. الحاجّ لم يكن يدري بأنّ واحدا من عناصر الأمن الداخلي كان حاضرًا في الاجتماع وسجّل اعترافه بحرق صورة القائد وتطاوله عليه، الأمر الذي سيؤدّي في نهاية المطاف لحبسه مرّة أخرى بعد أيام. ما علينا، نعود للحوار الذي جال بين النّاس في ذلك الاجتماع التّاريخي الذي سيسمّيه النّاس صلح العَربي رغم ألاّ صلحًا حدث فيه.

– بعيدًا عن مغالاة الحاج في تقديس بطلنا، لكنّه يبقى بطلًا. نعم ليس في بطولة القائد، لكنّه بطل. قال الأمين.

– بل إنّه أكثر بطولة من القائد. ما الذي فعله القائد؟ هل حرّر جهنّم؟

– الجنّة، جنّة العربي. قال الأمين غاضبًا مصححًا.

– نعم هل حرّر الجنّة من طغيان العقيد؟ لم يفعل، الحوّات عيسى العَربي هو من فعَل ذلك.

أصرّ الحاج إمحمّد على توريطنا في قضيّة سياسيّة كانت الحكاية ستُمنَع إن نشرناها أيام الجماهيرية. ثمّ أضاف على ذلك تدليسًا تاريخيًا لما حدث بالضّبط في أرضِ المعركة، إذ قال بأنّ بطلنا «طارح هيثم الغرام»، فاستغفَر شيخَ الجامع ربّه وصحّح للحاج بأنّه ربما يقصد أنّه طرح هيثم أرضًا، فوافق الحاج على

إعادة الصياغة وقال «رأيته كيف رفع هيثم عاليًا بيديْه ويسقطه أرضًا، رأيته كيف لكمه في وجهه فأرداه قتيلًا، ظنّ النّاس أنّ تلك اللكمة من يدِ عيسى العَربي مجرّد مسدسٍ تافهٍ أطلقه من بعيد خوفًا من هيثم، ولكن كيف يخاف هيثم من صارع حيتان القرش؟»، كان الحاج في حالة هستيرية يرُثى لها يزبد ووجهه المحمّر يتصبب عرقًا من النشوة.

- علينا أيّها النّاس أن نشيع خبَر هذه البطولة بين القرى أجمعين، لتعرف الجماهيرية كلّها.

قال جمال، فقد أراد استخدام بطلنا لأبعادٍ أخرى حتّى يسيّطر هو وأمين الجمعيّة السيّد محمود على القرى المحيطة التي بالتأكيد ستأتي لتقبّل أقدامهما خوفًا من الوحش الذي يملكه في جيبه، وبهذا يتحقق للرجليْن الفوز بأمانة منطقة «جهنّم ونواحيها»، وربما سيتمكنان في بضع سنوات ليصبح أحدهما أمين اللجنة الشعبيّة العامّة للجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية -خذ نفس بقى- العظمى. وبهذا يصبحان أقرب النّاس إلى القائد. وهذا ما لم نضعه في الحسبان أوّل الحكاية.

وعلى سيرة أوّل الحكاية، عادت الحاجّة تغمرها السعادة، فقد أخبرها الشيخ أنّ السحر قد نجح وأنها سترى آثاره في رحلة عودتها إلى القرية. وقد حقّ ذلك، فعندما وصلت إلى القرية رأت أهلها أجمعين متحلقين حول شجرة التوت يقذفون الأسرى بزجاجات المشروب وثمار التوت. تفاجأت الحاجّة عندما شاهدت ابنها يقف جنبا إلى جنب مقيّدًا صحبة العقيد، إذ ظنّ

النّاس ابن الحاجّة جاسوسًا للعقيد عندما لم يتعرّف عليه أحدٌ منهم. ناحت الحاجّة ولكن لم تعرف هل تحزن على أسر سيّدها أو محاولته تقبيل ابنها -بعد فكّه لوثاقه مدفوعًا بالرغبة الجنسيّة- في مشهدٍ قبيحٍ لا يتخيّله حتى الحكواتي مسعود. مشهد قلبَ القرية بين مستغفر وضاحك.

قيل إنّ القرية شاهدت الحاجّة تجري بعكّازها خلف العقيد الذي كان يلاحق ابنها عاريًا بعد أن فكّ كلّ منهما الوثاق، يريد العقيد أن يفعل به الفاحشة والعياذ بالله، أما الابن فكان يجري هاربا، لأول مرة، من الحُب.

25

وحتّى ننهي هذه الحكاية التي طالت أكثر من اللازم، لتكون نهاية تليق بهذه المهزلة. أودّ إخبارك بأنّ أمر العراك انتشر -كما تمنّى كل من في القرية- في شتّى أصقاع الجماهيرية، وحاك النّاس أساطيرًا عن بطولة عيسى العربي الذي أصبح بطلًا شعبيًا لكل من يقطن الجماهيرية حتى وصلت الأخبار إلى القائد فاضطر لقطع جلسته مع أحد القادة العرب. لم يكن وصول هذه الأخبار إلى القائد بهدف تمجيد عيسى العربي، ولكن لاتهام الحاج إمحمّد بالخيانة العظمى وتشكيل خليّة معارضة لسلطة الشعب. الحاج الغبي لم يفهم بألّا وجود لمعارضة لسلطة الشعب، فكيف يعارض الشعب سلطته؟ المهمّ وصل تقرير مفصّل عن ما حدث في القرية إلى يدِ رئيس جهاز الأمن الداخلي الذي رفع التقرير إلى المثابة العالمية لحركة اللجان الثورية حيث قرر الأعضاء هناك ضرورة إخبار القائد بما حدث من تغييرات داخل أرض جهنّم، أو أرض الجنّة حسب التعريف الجديد. قطع القائد لقاءه وأمرَ بإعدام عيسى العربي الذي صار أمين شعبية جهنّم -صوريًا كما ذكرناَ- وإطلاق سراح الحاجّ إمحمّد مع الحكم عليه بالعمل في مصنع الشّاي حتّى يتربّى. فلسفة القائد في ذلك أنّ الخطورة تقبع في بطولة عيسى العربي ونجوميّته ولا خطورة في خيانة الحاجّ.

ولكنّ القائد أخطأ فقد امتدّت شهرة عيسى العربي بعد ذلك إلى كل الأقطار العربيّة والعالمية، وكتب بحّاثٌ من جامعة أمريكية عن ظاهرة عيسى العربي وما أطلقوا عليه اسم «بطولة الحظ»، وخالفهم أكاديميٌّ إسراطينيٌّ -حسب تعبير القائد- بقوله إنّ أسطورة بطلنا تُدعى «ظاهرة البطل الفاشل». وقد خلق ذلك جوًا ومناخًا صحيًا لتعريف أنواعٍ من البطولة، فقد خرجَ بعد ذلك ابن الحاجّة مبروكة كبطلٍ آخرَ، سمّاه الباحث الإسراطينيّ «البطل المهزوم»، إذ اعتقد ابن الحاجّة بأنّه كان البطل الحقيقي في الحكاية وهو مَنْ حرّك كل الأحداث داخلها، أمّا مسعود المدني وابن عمّه علي المدني والمثقف التافه الحقير قارئ الجرائد فاعتبرهم النقّاد أبطالًا هامشيين؛ وبهذا حللنا كلّ العقد وأغلقنا كل الأقواس داخل هذه الحكاية ولم يبقَ لنا إلا عقدة واحدة فقط وهي ما الذي حلّ بالقط المبروك خصوصًا أننا رسمنا له هو أيضًا خطًا دراميًا؟

قالت لي القطّة امنَانِي التي كان يضاجعها المبروك في أيام الصيف الحارّة بأنّه هاجر إلى قريةٍ أخرى بحثًا عن حياة أفضل بعدما جُنَّت الحاجّة مبروكة من منظر العقيد وابنها، وتطلّقت الأبلة سعاد التي عاد زوجها من الصحراء فعرف بقصصها الغرامية مع رجال القرية الذين لم يفتأوا يعاكسونها ويذكّرونها بيوم «الشرفة» كما سمّوه عندما سلبوها ملابسها. كان المبروك يظنّ الأبلة سعاد ملكه إذ كان يتلصصّ طيلة سنوات وجودها في القرية عليها من دون أن تدرك هي ذلك. رحَل المبروك عن القرية وانقطعت

أخباره عنها. لاحقًا أخبرني المبروك في لقاءٍ عارضٍ جمعنا وسط العاصمة بأنّه يعيش حياة سعيدة مع «غولة» بيت الحاج إمحمّد التي اتضحّ أنّها أنثى ولم تكن ذكرًا، فتزوّجها وأنجبا صبيانًا وبناتًا وعاشوا في تبات ونبات.

الحمّامات- تونس سبتمبر 2022
تاجوراء- ليبيا يناير 2024

محمد النعاس

العراك في جهنم

نصّ ممتع في سخريته السوداء...
مرحلة من حياة الشعب الليبي يصعب تصوّرها إلّا على أنها ملهاة...

الناشر

***

«قيل إنّ العراك بدأ بعد تصعيد جمال التشنكوي ليصبح أوّل سكّيرٍ وتاجرٍ للخمرِ يجلس على كرسي أمانة شعبية جهنم. لم يثق منافسه، العقيد بودبّارة من حملِ التشنكوي على عاتقه مطالب شعبية جهنّم، فدخلت القرية بأكملها في قتال بين شيعة التشنكوي وحزب العقيد؛ إذ لم يرض الخاسرون أن يصبح تاجر البوخة أمينًا لهم.

وقبل أن تخدعك نفسك في التأويل والتفسير عن مغزى هذه الحكاية ورموزها، وهل يمكن أن يرمز التشنكوي والعقيد لكيانات أكبر منهما ليكونا أطراف صراعٍ في المعمورة الليبية أو أي معمورة أخرى، أردتُ أن أريح عقلك وأقول لك بأن هذه القصة حقيقية، وحدثت في تسعينيات القرن البائد، في قرية صغيرة اسمها جهنّم، تحت أعينِ سلطة الشعب. وأنا هُنا، الراوي الذي يستعير انتباهك، مجرد محرّف لها لغرض المُتعة والأرشفة الإنسانية للأجيال القادمة، الأجيال التي لن تهمها العِبرَ بقدر اهتمامها بأننا كنا نعيش في بلدٍ غير خاضع لمعايير العالم الذي يحوم حولنا، بلدٌ هامشيٌّ كان في كل بيت فيه زجاجات «سعادة، كوثر، تبر ومرادة» فارغة نعبئها عند الموزعين والجمعيّات، ونستخدمها بعد تكسيرها لحماية أسوارنا التي يمتد ارتفاعها ضعفي طول إنسان بالغ من الغزاة والسارقين. وفي حالة العِراك بين بيت التشنكوِي والعقيد، نحوّلها إلى زجاجات مولوتوف نستخدمها صواريخ لإحراق أرض العدو».

مكتبة نوميديا

ISBN 978-9938-941-86-9

daraltanweer.com